يا باغي الشر أقصر

الشيخ/ندا أبو أحمد

يا باغي الشر أقصر

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله ـ تعالى ـ، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نبض الرسالة

يا باغي الشر أقصر

١- فيا باغي الشر: إياك أن تكون ممن يركبك الغم بسبب قدوم رمضان.
٢- يا باغي الشر: أقصر عن الإفطار في نهار رمضان.
٣- يا باغي الشر: أقصر عن ترك الصلوات المكتوبات.
٤- فيا باغي الشر: أقصر عن تأخير الصلاة عن وقتها.
٥- يا باغي الشر: أقصر عن ترك صلاة التراويح.
٦- يا باغي الشر: أقصر عن هجر القرآن خصوصًا في رمضان.
٧- يا باغي الشر: أقصر ولا تغفل عن إحياء ليلة القدر.
٨- يا باغي الشر: أقصر عن الشح في رمضان، وفي غيره من سائر الأيام.
٩- يا باغي الشر: أقصر عن أكل الحرام، فإنه مانع من استجابة الدعاء وقبول الأعمال.
١٠- يا باغي الشر: أقصر عن الإسراف في تناول الطعام والشراب.
١١- يا باغي الشر: أقصر عن الغيبة والنميمة والبهتان وزلات اللسان.
١٢- يا باغي الشر: أقصر عن النظر إلى الحرام.
١٣- يا باغي الشر: أقصر عن الذنوب والمعاصي، فهي المانعة من المغفرة في شهر المغفرة.
١٤- يا باغي الشر: أقصر عن سماع الأغاني والألحان في رمضان وفي غيره من سائر الأيام.
١٥- يا باغي الشر: أقصر عن مشاهدة التلفاز، والانشغال بالمسابقات والفوازير والمسلسلات.
١٦- يا باغي الشر: أقصر عن تضييع الأوقات في المكالمات الهاتفية غير المفيدة.
١٧- يا باغي الشر: أقصر عن الغضب وهيجان الأعصاب بحجة أنك صائم.
١٨- يا باغي الشر: أقصر عن السهر بالليل في اللعب واللهو، والنوم طوال نهار رمضان.
١٩- يا باغي الشر: أقصر عن شرب الدخان والمخدرات.
٢٠- يا باغي الشر: إياك والجدال والخصومة خصوصًا في رمضان.
٢١- يا باغي الشر: أقصر عن اهتمامك بجسدك، وإهمال قلبك.
٢٢- يا باغي الشر: إياك والمَنّ على الله تعالى.
٢٣- يا باغية الشر: أقصري عن التبرُّج، وعليك بالحجاب في رمضان بل وفي سائر شهور العام.
٢٤- يا باغية الشر: أقصري عن التطيُّب عند الذهاب للمسجد.
٢٥- يا باغي الشر: إياك وتضيع الأوقات في رمضان، بل وفي سائر الأيام.
٢٦- يا باغي الشر: إياك والكسل خصوصًا في رمضان شهر المغفرة والرضوان، والعتق من النيران.
٢٧- يا باغي الشر: إياك والغفلة خصوصًا في رمضان.

يا باغي الشر أقصر

إلى كل من كُبِلَ قلبُه بسلاسل الشهوة... وإلى كل من قيد نفسه بهواه... وإلى كل من تاه في صحاري الغفلة... وإلى كل من شغلته الدنيا عن طلب الآخرة.... وإلى كل من مال به الحال عن طاعة الرحمن. وإلى كل من ضيع عمره في غير طاعة.... وإلى كل من فرط في شهر الخير وأضاعه.

فهذا الصنف ننادي عليه ونقول له: يا باغي الشر أقصر.

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي والبيهقي والحاكم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ[1] الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ[2] فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ كل ليلة: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ وللهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ "**. (صحيح الجامع: ٧٥٩)

يقول المباركفوري-رحمه الله- في" كتابه تحفة الأحوذي:٣/٣٦١": وقول المنادي: **يَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ...**"، أي يا مريد المعصية أمسك عن المعاصي، وارجع إلى الله تعالى، فهذا أوان قبول التوبة، وزمان استعداد المغفرة، ولعل طاعة المطيعين وتوبة المذنبين، ورجوع المقصرين في رمضان من أثر النداءيين:" **يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ** ". اهـ

١- فيا باغي الشر: إياك أن تكون ممن يركبك الغم بسبب قدوم رمضان؛ بحجة أنه سَيُمْنَع عنك الشهوات والملذات:

فأهل الغفلة وبغاة الشر يستثقلون رمضان، ويعدون أيامه ولياليه وساعاته؛ لأن رمضان يحجب عنهم الشهوات، ويمنعهم اللذات، **يقول شاعرهم:**

ألا ليت الليل فيه شهر وَمرَّ نهاره مرّ السحاب

وهذا كله ليس من تعظيم شعائر الله، **وقد حُكِيَ:** أنه كان لهارون الرشيد غلام سفيه كان يستثقل الصيام، فلما أقبل شهر رمضان تضايق هذا الغلام، ***وأخذ يقول:***

دعاني شهر الصوم ولا كان من شهر ولا صمت شهرًا بعده آخر الدهر

فلو كان يُعْدِيني الأنام بقوة على الشهر لاستعديتُ قومي على الشهر

يعني: لو كان الناس يستطيعون مساعدتي على حرب هذا الشهر لطلبت منهم ذلك.

فأصابه الله بمرض الصّرع، فكان يصرع في اليوم عدة مرات، ومازال كذلك حتى مات قبل أن يصوم رمضان الآخر.

١- صفدت: بضم أوله وتشديد الفاء أي شُدَّت وأُوثقت بالأغلال، والأصفاد هي القيود، قال تعالى (مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ) أي مشدودين بعضهم ببعض في القيود والأغلال. (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير:٣/٥٣)

٢- وفي لفظ للبخاري" وفتحت أبواب السماء"، وعند مسلم بلفظ" وفتحت أبواب الرحمة".

قال ابن رجب-رحمه الله- في" لطائف المعارف:١/١٥٨": " السفهاء يستثقلون رمضان لاستثقالهم العبادات فيه؛ من الصلاة والصيام، فكثير من هؤلاء الجهال لا يصلي إلا في رمضان إذا صام، وكثير منهم لا يجتنب كبائر الذنوب إلا في رمضان، فيطول عليه ويشق على نفسه مفارقتها لمألوفها فهو يعد الأيام والليالي ليعودوا إلى المعصية، وهؤلاء مصرون على ما فعلوا وهم يعلمون، فهم هلكى ومنهم من لا يصبر على المعاصي فهو يواقعها في رمضان".

فلابد أحبتي في الله أن لا نكون من هذا الصنف ونفرح بقدوم هذا الشهر الكريم، ونستبشر بذلك استبشارنا بقدوم حبيب غائب جاء من سفره، إذ أن التأهب لشهر رمضان والاستعداد لقدومه من تعظيم شعائر الله تبارك وتعالى **القائل:** ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج:٣٢)

ولابد أن نعلم جميعًا أن ترك الشهوات في الدنيا من أجل الله سبب للفوز بها في الآخرة.

وهذا مفهوم من كلام النبي ﷺ: **" مَن شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها، حُرمها في الآخرة ".**

(رواه البخاري ومسلم)

وقوله ﷺ: **" مَن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ".** **(رواه البخاري ومسلم)**

ومفهوم المخافة للحديث: أن من ترك لبس الحرير وشرب الخمر في الدنيا، لم يُحرمهما في الآخرة.

وقوله ﷺ: **" مَن ترك اللباس تواضعًا لله وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها ".** **(رواه الترمذي)**

وقوله ﷺ: **" إن الله تبارك وتعالى قضى على نفسه أنه مَن أعطش نفسه لله في يوم صائف؛ سقاه الله يوم العطش ".** **(رواه البزار من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما-)**

وقوله ﷺ: **" إن في الجنة بابًا يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحدٌ غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغْلِق فلم يدخل منه أحد**

(رواه البخاري ومسلم)

وفي رواية ابن خزيمة: **" فإذا دخل آخرهم أُغلِق، ومَن دخل شرب، ومَن شرب لم يظمأ أبدًا ".**

وغير ذلك من الأدلة التي تدل على أن الإنسان إذا تعجَّل الملذَّات والشهوات التي نهاه عنها رب الأرض والسموات حُرِمها في الآخرة، ومَن تركها لله في الدنيا نالها بأفضل منها في الآخرة.

٢- يا باغي الشر: أقصر عن الإفطار في نهار رمضان:

وهذا أمر خطير ابتُلِيَ به بعض المسلمين، وجزاؤه وخيم، كما أخبر الرسول الأمين ﷺ.

ففي الحديث الذي أخرجه ابن حبان وابن خزيمة عن أبي أمامة الباهلي ﷺ أن الحبيب النبي ﷺ قال:

"بينما أنا نائم أتاني رجلان فأخذا بِضَبْعَيَّ[١]، فأتيا بي جبلًا وَعْرًا[٢]، فقالا: اصعد، فقلت: لا أطيقه، فقالا: إنا سنُسهِّله لك[٣]، فصعدتُ حتى إذا كنت في سَوَاءِ الجبل[٤]، إذا بأصوات شديدة، قلت ما هذه الأصوات؟ قالا: هذا عواء أهل النار[٥]، ثم انطُلِق بي، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم[٦]، مشققة أشداقهم[٧]، تسيل أشداقهم دمًا، قلت: مَن هؤلاء؟، قالا: الذين يفطرون قبل تحلَّة صومهم[٨]".

(صحيح الترغيب والترهيب:٩٩٥)

وفي مسند الإمام أحمد والنسائي عن عائشة-رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال: **" ثلاث أحلف عليهم: لا يجعل الله تعالى مَن له سهمٌ في الإسلام كمن لا سهم له، وأَسْهم الإسلام ثلاثة: الصلاة، والصوم، والزكاة ".**(صحيح الجامع: ٣٠٢١)

قال الحافظ الذهبي-رحمه الله- كما في كتابه "الكبائر": وعند المؤمنين مقرر أن مَن ترك صوم رمضان بلا عذر أنه شر من الزاني، والمكاس[٩]، ومدمن الخمر، بل يشكون في إسلامه، ويظنون به الزندقة والإخلال (أي في إيمانه خلل)

ولذلك كان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول فيما رواه الخمسة: **" مَن أفطر يومًا في رمضان من غير رخصة، لم يجزه صيام الدهر كله".**

والمقصود هو التغليظ الشديد على مَن أفطر يومًا في رمضان متعمدًا بغير عذر، وليس المقصود أنه لا يقضي ما أفطره؛ لأن قضاءه واجب.

بل وصل الأمر بالبعض أنه يجاهر بهذه المعصية (الفطر) في نهار رمضان.

والنبي العدنان ﷺ يقول كما عند البخاري ومسلم: **" كل أمتي معافى إلا المجاهرين".**

فإذا كان هذا الخرق الواضح لشعيرة معظّمة جدًا في نفوس المسلمين قابلها الناس بالسكوت والرضا لعمَّهم الله بالعذاب سواء المفطرين أو الساكتين على هذا المنكر العظيم، **كما قال رب لعالمين:** ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال:٢٥)

---

١ ـ ضبعي: وسط العضد، وقيل: هو ما تحت الإبط
٢ ـ وعرًا: صعب المسلك، أي: الوصول إليه يكون بشدة وألم
٣ ـ سنُسهِّله لك: أي نجعله لك سهلًا، ونساعدك على صعوده ورقيه.
٤ ـ سَوَاء الجبل: وسطه
٥ ـ عواء: صراخ
٦ ـ عراقيبهم: جمع عرقوب، وهو الوتر الذي خلف الكعبين.
٧ ـ أشداقهم: جوانب الفم
٨ ـ قبل تحلّة صومهم: أي قبل أن يحل له ما حُرِّم عليه بسببه، والمراد: أنهم يفطرون قبل تمام صومهم (أي: قبل وقت الإفطار)، فإذا كان هذا وعيد مَن يفطرون قبل غروب الشمس ولو بدقائق معدودات، فكيف بمَن يفطر اليوم كله؟! إنه على خطر كبير.
٩ ـ المكاس: العشار، أي الذي يأخذ عُشر الأموال، والمقصود: هو جابي الضرائب التي تفرض على الناس ظلمًا، ومن معاني المكس: النقص والظلم.

وها هي إحدى زوجات الرسول ﷺ تسأله: **" يا رسول الله أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث ".** (رواه البخاري ومسلم)

يقول عمر بن عبد العزيز-رحمه الله-: " كان يقال: إن الله- تبارك وتعالى- لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عُمِلَ المنكر جهارًا استحقوا العقوبة كلهم ". (رواه الإمام مالك في الموطأ)

إن الذي وصلت به شهوة البطن والفرج إلى حد أنه أفطر في رمضان – بغير عذر شرعي- لا شك أن أقرب الأخلاق إلى أخلاقه هي أخلاق البهائم، لأن شهوتها في الأكل والشرب وقضاء الوطر.

قال ابن القيم-رحمه الله-: وأما الذنوب البهيمية فمثل: الشّره، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، **ودليل هذا في القرآن الكريم قوله تعالى:** ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (محمد:١٢)، **وقوله تعالى:** ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٤)

قال بعض السلف: " إن هذه القلوب جوّالة، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحُشّ".
أي: حول مكان القاذورات والنجاسات ".

وانظر لهؤلاء الذين دفعتهم شهوة الأكل إلى التحايل على الحرام فمسخهم الله قردة:

إنها قصة بنى إسرائيل الذين يسكنون على شاطئ البحر، وقد نهوا عن الصيد يوم السبت ليتفرغوا للعبادة في ذلك اليوم، وكانت الأسماك تأتيهم فقط يوم السبت، فنصبوا الشِّباك يوم السبت، وأخذوا السمك يوم الأحد، وهذا نوع من أنواع التحايل على الحرام، وامتنعت مجموعة من الصالحين عن ذلك، ونصحت المخالفين لأمر الله، فلما لم يستجب هؤلاء المخالفون للنصح، مسخهم الله إلى قردة، فذهب الصالحون إليهم في ذات يوم فوجدوهم ممسوخين إلى قردة – والعياذ بالله- فكان الرجل الممسوخ يأتي إلى قريبه الصالح ويشم ثيابه ويبكي، ولا يستطيع أن يتكلم لأنه أصبح قردًا.. فيعاتبه قريبه الصالح، ويقول له: ألم أنهك؟! فيهز القرد – أي الرجل الممسوخ- رأسه، يعنى: بلى نهيتني، ولكن لم أستجب.

(انظر تفسير القرطبي- سورة الأعراف)

قال الحسن البصري -رحمه الله-: **" أكلوا والله أوخم – أسوأ- أكلة، أكلها أهلُها، أثقلها خزيًا في الدنيا، وأطولها عذابًا في الآخرة ".**

فيا مَن تتركون الصيام في رمضان.. أتدرون مَن تعصون؟

إنكم تعصون ربكم الذي خلقكم وأعطاكم من كل ما سألتموه، فمالكم لا ترجون لله وقارا؟

يا مَن تتركون الصيام في رمضان.. هل تعلمون أن الله وملائكته يُصلُّون على المتسحرين، وهذا السحور عون على الصيام، فما ظنكم بالصيام؟

فقد جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" إن الله وملائكته يُصلُّون على المُتسحِّرين ".** (الصحيحة:١٦٥٤)

فيا دنيَّ الهمة.. تبيع صلاة الله والملائكة بشبع وتخمة، ولا تصم عن لقمة.

يا مَن تتركون الصيام في رمضان من أجل الطعام.. اعلموا أن هذا الطعام إذا جاوز اللسان فهو نتان، فالإنسان يشعر بلذته وطعمه لثوان معدودات ثم يصبح قاذورات، ويخرج على شكل فضلات- فأين لذته بعد الانهضام- ذهبت وبقيت العواقب الوخيمة.

تفنى اللذاذة ممَّن نال صفوتها من الحرام، ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار

يا مَن تتركون الصيام في رمضان من أجل الماء.. هل تعلمون أن من أعطش نفسه في الدنيا، سقاه الله يوم العطش الأكبر، حين تدنو الشمس من رؤوس الخلائق.

ففي الحديث الذي أخرجه البزار وفيه: **" إن الله- تبارك وتعالى- قضى على نفسه أنه من أعطش نفسه له في يوم صائف سقاه الله يوم العطش".**

وعلينا أن نتذكر حال أهل النار، الذين رووا في الدنيا وتمتعوا بشتى متع الحياة، ولكنهم كانوا بعيدين عن الرحمن، كانت أمنيتهم كما ذكر القرآن عندما ينادون على أهل الإيمان: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ﴾ (الأعراف:٥٠)

يا مَن تفطر في رمضان من أجل شربة ماء.. أما تشتاق لشربة هنيئة من يد النبي محمد ﷺ من حوضه يوم القيامة، ***وهو القائل ﷺ كما في صحيح البخاري:*** **" حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السَّماء، مَن يشرب منه فلا يظمأ أبدًا ".**

وأذكر لحضاراتكم ما ذكره أحدُ العمّال في مصنع الحديد والصلب بحلوان:

حيث ذكر أن والده سقط في خزان الصخور المعدنية المنصهرة شديدة الحرارة، فتبخَّر الهيكل العظمى لوالده في ثوان، ولم يعد له أثر، فهذه نار الدنيا ونهايتها موت، فما بالك بنار الآخرة؟! وهي أشد من نار الدنيا بسبعين مرة، ولا موت فيها.. اللهم سلِّم سلِّم.

وأسأل الله ﷻ لنا ولكم العفو والعافية في الدنيا والآخرة، وأن يجرنا من عذاب جهنم ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (الفرقان: ٦٥)

واعلم أن البعد عن جهنم –التي لا تُبْقي ولا تذر– يكون بقدر صيامك في الدنيا.

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" لا يصوم عبدٌ يومًا في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفًا".**

وعلينا أن نتذكر حال أهل النار، الذين رووا في الدنيا وتمتعوا بشتى متع الحياة، ولكنهم كانوا بعيدين عن الرحمن، كانت أمنيتهم كما ذكر القرآن عندما ينادون على أهل الإيمان: ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ (الأعراف:٥٠)

كان الأحنف بن قيس يكثر من الصيام فقيل له: إنك شيخ كبير وأن الصيام يضعفك، فقال: إني أعده لسفر طويل، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه ".

يا مَن تفطر في رمضان من أجل شربة ماء.. أما تشتاق لشربة هنيئة من يد الحبيب النبي ﷺ من حوضه يوم القيامة، ***وهو القائل ﷺ كما في صحيح البخاري:*** **" حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السَّماء، مَن يشرب منه فلا يظمأ أبدًا".**

٣- يا باغي الشر: أقصر عن ترك الصلوات المكتوبات:

فمن الناس مَن لا يُصلِّي مطلقًا، لكن في رمضان نرى المساجد في بداية الشهر قد عمرت بالمصلين، ومُلِئت على بكرة أبيها، وربما صلَّى الناس خارج المساجد من كثرة الزحام، ثم يبدأ العد التنازلي لصلاة الجماعة حتى يقتصر على رُوَّاد المساجد الأُوَّل، ويكون آخر شهر رمضان مثل غيره من شهور العام، ومن المعلوم أن شهر رمضان جُعِلَ للتنافس في النوافل، فكيف بمَن يفرِّط في الفرائض؟

فيا مَن تترك الصلاة المكتوبة... هل تحب أن تُحشر مع فرعون وقارون وهامان وأُبي بن خلف؟

فقد أخرج الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو–رضي الله عنهما– عن النبي ﷺ قال: **" مَن حافظ على الصلاة كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً من النار، ومَن لم يحافظ عليها لم يكن له نورٌ ولا برهانٌ ولا نجاةٌ يوم القيامة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبيّ بن خلف ".**

فأين عقول الذين باعوا مرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرًا.

كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ (المدثر:٣٨ – ٤٣)

والأدلة كثيرة على خطورة ترك الصلاة وهلكة وعظم ذنب تاركها، وليس هذا محلًا لسردها.

يقول ابن حزم-رحمه الله-: " لا ذنب بعد الشرك أعظم من ترك الصلاة حتى يخرج وقتها، وقتل مؤمن بغير حق ". اهـ

وقال الحافظ الذهبي-رحمه الله-: " ترك كل صلاة أو تفويتها كبيرة، فإن فعل ذلك مرات فهو من أهل الكبائر إلا أن يتوب، فإن لازم ترك الصلاة فهو من الأخسرين الأشقياء المجرمين ". اهـ

ويقول ابن القيم-رحمه الله- كما في "كتاب الصلاة وحكم تاركها" ص:٣: " لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدًا من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس وأخذ الأموال، ومن إثم الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنه متعرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدنيا والآخرة ".

وقد كان عمر بن الخطاب ﷺ يكتب إلى الآفاق: " **إن أهمَّ أموركم عندي الصلاة، فمَن حفظها فقد حفظ دينه، ومَن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع، ولا حظ في الإسلام لمَن ترك الصلاة** ". (كتاب الصلاة لابن القيم)

وعلى هذا فكل مُستَخِفّ بالصلاة، مستهين بها، فهو مُستَخِفّ بالإسلام مستهين به، وإنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة، فاحذر أن تلقى الله ولا قدر للإسلام عندك، فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك.

وصحّ عن النبي ﷺ أنه قال: " **رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة** ". (رواه الترمذي وابن ماجه)

ألست تعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط، ولم يُنتَفَع بالطنب ولا بالأوتاد، فكذلك الصلاة في الإسلام.

فليحذر هذا الصنف من إضاعة الصلاة؛ **حتى لا يدخل تحت قوله تعالى:** ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (مريم:٥٩)

يا من تصومون رمضان وتتركون الصلاة... إن الذي فرض عليكم الصيام هو الذي فرض عليكم الصلاة، والمطلوب من المسلم أن يعمل بكل أركان الإسلام، **كما قال تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة:٢٠٨)

فلنعلم جميعًا أن أول ما سنحاسب عليه من أعمالنا يوم القيامة الصلاة.

فقد أخرج الترمذي وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: " **إنَّ أولَ ما يحاسبُ به العبدُ يوم القيامة من عمله الصلاة، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر وإن انتقص من فريضةٍ، قال الرب ﷻ: انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل منها ما انتقص من الفريضة، ثم تكون سائر أعماله على ذلك** ". (صحيح الجامع:٢٠٢٠)

وحال الذي يحرص على الصيام مع تركه للصلاة، كحال الذي يبني قصرًا ويهدمُ مصرًا، والصلاة كما نعلم هي عمود الدين، *كما أخبر الرسول الأمين ﷺ كما عند الترمذي وابن ماجه:* " رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ".

ونحن نعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط، ولم يُنتَفَع بالطنب ولا بالأوتاد، فكذلك الصلاة في الإسلام.

٤- *فيا باغي الشر: أقصر عن تأخير الصلاة عن وقتها:*

فكثير من الناس ينشغل عن الصلاة ويأخرها بسبب الأعمال أو غير ذلك، أو يتأخر في النوم حتى يخرج وقتها، وخصوصًا صلاة الفجر، ولقد توعَّد الله كل مَن يؤخر الصلاة عن وقتها بالويل والعذاب الشديد، **فقال تعالى:** ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون:٥،٤)

أي: يؤخرونها عن وقتها أو يخرجونها عن وقتها بالكلية؛ كما قال مسروق: وهذا من صفات المنافقين ".

وانظر قول النبي ﷺ فيمن أخر صلاة العصر.

فقد أخرج الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: " تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقر أربعًا، لا يذكر الله فيها إلا قليلًا ".

ولئن يفقد الرجل أهله وماله خير له من أن يفوته وقت الصلاة.

فقد أخرج عبد الرزاق في "مصنفه" أن النبي ﷺ قال: " لأن يوتر أحدكم أهله وماله خير له من أن يفوته وقت الصلاة ".

يقول ابن حزم-رحمه الله- كما في" كتاب الكبائر للذهبي ص:٢٦ : " لا ذنب بعد الشرك أعظم من ترك الصلاة حتى يخرج وقتها وقتل مؤمن بغير حق ".

فلنعلم جميعاً... أن أحب الأعمال عند الله ﷻ هي الصلاة على وقتها

فقد أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: " سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله ".

يقول سعيد بن المسيب-رحمه الله-: " ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد ".

(سير أعلام النبلاء:٤/٢٢١)

وقال صاحب تحفة الأحوذي:٢/٤٥": " كان السلف إذا فاتتهم تكبيرة الإحرام عَزوا أنفسهم ثلاثة أيام، وإذا فاتتهم الجماعة عزوا أنفسهم سبعة أيام ".

٥- يا باغي الشر: أقصر عن تـــرك صـــلاة الـتـــراويـــح:

اذا سرت بعد منتصف الليل في رمضان في أي مكان سترى عجبًا عجابًا لو ترى عيناك، سترى المحلات والأسواق مفتحة الأبواب وسترى العارية وذات الحجاب، وأصوات اللهو والأغاني ترفع فوق السحاب، والمعاصي عيانًا جهارًا، وانقلب الليلُ نهارًا، فأين أرباب القيام؟ أين المجتهدون في جنح الظلام؟ وهناك من يقضي الليل أمام شاشة التلفاز، فرغم أنف كل من استبدل القيام بالبرامج والمسلسلات والأفلام، رغم أنفه في الطين والتراب.

يُروى أن الحسن بن صالح-رحمه الله-وهو من الزُّهاد العُبَّاد – كانت له جارية- فاشتراها منه بعضهم، فلما انتصف الليل عند سيدها الجديد قامت فنادتهم: يا أهل الدار! الصلاة، الصلاة – تقصد قيام الليل- فقاموا، وقالوا: هل طلع الفجر؟ فقالت لهم: أأنتم لا تصلون إلا المكتوبة؟! فلما أصبحت رجعت إلى الحسن بن صالح، وقالت له: لقد بعتني إلى قوم سوءٍ لا يصلون إلا المكتوبة فردني، فردَّها.

إن هذا الشهر العظيم غنيمة لكل مسلم يريد أن يعتق الله رقبته من النار، ولذا فإن النبي ﷺ رغَّب في قيام هذا الشهر، **فقال:**" **من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه** ". **(البخاري ومسلم)**

ولكننا نجد أن أكثر الناس ينشغلون عن تلك العبادة العظيمة بمشاهدة التلفاز، والذهاب إلى المسارح وأماكن الغناء.. ولا حول ولا قوة إلا بالله. وكل ذلك لأنهم يعتقدون أن شهر رمضان لا يعني إلا الامتناع عن الطعام والشارب بالنهار، ثم الانغماس في المعاصي والملذات بالمساء.

مع أن النبي ﷺ قال: " **إن لله تبارك وتعالى عتقاء في كل يوم وليلة- يعني في رمضان- وإن لكل مسلم في كل يوم وليلة دعوة مستجابة** ". **(رواه الإمام أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع:٢١٦٩)**

فليغتنم المسلم ليالي رمضان في طاعة الرحمن ليكون من عتقائه من النيران، ويفوز بالروح والريحان في أعالي الجنان.

٦- يا باغي الشر: أقصر عن هجر القرآن خصوصًا في رمضان:

فمن فضائل شهر رمضان المبارك؛ أن الله تعالى أنزل فيه القرآن، **قال تعالى:** ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ. . . ﴾ (البقرة:١٨٥)

فرمضان هو شهر القرآن، ولذا كان جبريل عليه السلام يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس-رضي الله عنهما- أنه قال: **" كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبي ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة".**

قال ابن رجب-رحمه الله-: " دل الحديث على استحباب دراسة القرآن في رمضان والاجتماع على ذلك، وعرض القرآن على مَن هو أحفظ له، وفيه دليل على استحباب الإكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان.

- **وهكذا كان حال السلف مع القرآن في رمضان.**

فها هو الإمام مالك -رحمه الله-: إذا دخل رمضان ترك قراءة الحديث ومجالس العلم، وأقبل على قراءة القرآن في المصحف.

وكان الزهري -رحمه الله- إذا دخل رمضان يقول: إنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام.

وكان سفيان الثوري -رحمه الله-: إذا دخل رمضان يترك جميع العبادات، ويقبل على قراءة القرآن.

وكان قتادة -رحمه الله-: يختم القرآن في كل سبع ليال دائمًا، وفى رمضان في كل ثلاث، وفى العشر الأخيرة منه في كل ليلة.

وكان الشافعي-رحمه الله-: يختم القرآن في شهر رمضان ستين ختمة.

وهكذا كان حال السلف مع القرآن في رمضان وفي غيره، أما نحن فقد هجر البعض منا القرآن، فلا وقت لسماعه، ولا قراءته، ولا حفظه، وإذا قرأناه أو سمعناه لم نتدبره ونفهمه، وإذا فهمناه أو تدبرناه لم نعمل به ولم نتحاكم إليه، بل اكتفينا أن نقرأه على الأموات، ونزين به الجدران، ***وصدق فينا قول النبي*** ﷺ: ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان:٣٠)

يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه ***كما عند الدارمي:*** **" سيبلى القرآن في صدور أقوام، كما يبلى الثوب فيتهافت، يقرئونه لا يجدون له شهوة ولا لذة ".**

وصدق الله معاذ بن جبل، فنحن نقرأ أو نسمع القرآن فلا نجد شهوة ولا لذة، ويزداد الأمر خطورة وسوء عندما نجد هذا أيضًا في شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، فهناك مَن لا يفتح المصحف فيه، وإذا أطال الإمام في الصلاة يضيق صدره، ويصيبه الضجر والقلق، ويقيم الدنيا ولا يقعدها، وهذا هو حالنا ولا يخفى على أحد.

وصدق والله عثمان بن عفان ﷺ حيث قال: **" لو طهُرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم ".**

وقد قسم النبي ﷺ الناسَ وعَلاقتَهم بالقرآنِ إلى أربعةِ أقسامٍ:

فقد أخرج البخاري من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" مَثَلُ الذي يَقْرَأُ القُرْآنَ[1] كالأُتْرُجَّةِ[2]: طَعْمُها طَيِّبٌ، ورِيحُها طَيِّبٌ، والذي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كالتَّمْرَةِ: طَعْمُها طَيِّبٌ، ولا رِيحَ لَها، ومَثَلُ الفاجِرِ الذي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحانَةِ: رِيحُها طَيِّبٌ، وطَعْمُها مُرٌّ، ومَثَلُ الفاجِرِ الذي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ: طَعْمُها مُرٌّ، ولا رِيحَ لَها".**

وفي حديث آخر قسم النبي ﷺ الناسَ وعَلاقتَهم بالقرآنِ إلى قسمين:

أخرج ابن حبان والبيهقي في" شعب الإيمان" من حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" القرآنُ شافعٌ[3] مشفَّعٌ[4]، وماحِلٌ مصدَّقٌ[5]، من جَعلَه أمامَه[6] قادَه إلى الجنَّةِ، ومن جعلَه خَلفَ ظهرِه[7] ساقَه إلى النَّارِ".** (صحيح الترغيب والترغيب: ١٤٢٣)

فيا من كان القرآن خصمه! كيف ترجو ممن جعلته خصمك الشفاعة؟

فيا أمة الاسلام! لا تهجروا القرآن في رمضان وفي غيره من الأيام، واعملوا بما فيه قبل فوت الإمكان، وحافظوا على حدوده من التفريط والعصيان، واعلموا أنه شاهد لكم أو عليكم عند الملك الديان، وليس من شكر نعمة الله بإنزاله أن نتخذه وراءنا ظهريًا.

قال الدكتور عمر المقبل-رحمه الله-: لو سألت أي مسلم: أتؤمن بأن القرآن هدى، ونور، ورحمة، وشفاء، وحياة للقلب؟ لأجابك – وبلا تردد – نعم! ولكنك تأسف إذا علمت أن الكثير من المسلمين لا يعرف القرآن إلا في رمضان! فإنَّ حال هذا في الحقيقة هي كمن يعلن عن استغنائه عن هدى الله، ونوره، ورحمته، وشفائه، وحياة قلبه أحد عشر شهرًا!.

١- وقولُه ﷺ:" يقرأُ القُرآنَ": على صيغةِ المضارعِ ونَفْيِه في قَولِه:" لا يقرَأُ" ليس المرادُ منهما حصولَها مرَّةً ونَفْيَها بالكُليَّةِ، بل المرادُ منهما الاستمرارُ والدَّوامُ عليهما، وأنَّ القِراءةَ دأبُه وعادتُه، أو ليست عادةً له.

٢- الأُتْرُجَّةِ: وهو ثَمَرٌ جامِعٌ لِطِيبِ الطَّعْمِ والرَّائحةِ وحُسْنِ اللَّونِ، ومَنافِعُه كَثيرةٌ.

٣- القرآنُ شافعٌ: أي: لصاحبِه وقارئِه.

٤- مُشفَّعٌ: أي: مَقبولُ الشَّفاعةِ.

٥- ماحِلٌ مُصدَّقٌ: أي: شاهِدٌ مُصدَّقٌ عندَ اللهِ.

٦- مَن جعَلَه أمامَه: بأنْ نفَّذَ أوامرَه وانتَهى عن نواهيهِ.

٧- ومَن جعَلَه خلْفَ ظَهرِه: بأنْ خالَفَ أمْرَه ونَهيَه.

٧- يا باغي الشر: أقصر ولا تغفل عن إحياء ليلة القدر:

ليلة القدر من المنح الربانية على الأمة المحمدية، حيث جعل الله العمل في هذه الليلة خيرًا من ألف شهر، وهي الليلة التي أنزل فيها القرآن، وهو حدث عظيم لم تشهد الأرض ولا السماء مثله في عظمته، فهي ليلة ذات قدر عند الله تعالى وسماها بالليلة المباركة، **فقال تعالى:** ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ (الدخان:٣)، وهي الليلة التي مَن أقامها فقد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه.

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"مَن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه ".**

ولذلك كان النبي ﷺ يجتهد في العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد في غيرها.

تقول عائشة-رضي الله عنها-: **" كان النبي ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا ليلهُ وأيقظ أهله وشد مئزره".** كناية عن الاجتهاد في الطاعة واعتزال النساء.

وكان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان التماسًا لهذه الليلة المباركة ".

ومع هذا الفضل العظيم والأجر الكبير، نجد كثيرًا من المسلمين يغفلون عن إحياء هذه الليلة؛ لانشغالهم بمطالب دنيوية من شراء ملابس للعيد، أو عمل الكعك والبسكويت، أو كثرة الزيارات... أو غير ذلك من الأعمال الدنيوية، والتي حرمت صاحبها من إحياء ليلة القدر المباركة، فهذا الصنف محروم.

فقد أخرج الإمام أحمد والنسائي واللفظ له من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يبشر أصحابه: **قدْ جاءَكمْ شهرُ رمضانَ، شهرٌ مباركٌ، افترضَ اللهُ عليكُمْ صيامَهُ، يفتحُ فيهِ أبوابُ الجنةِ، ويغلقُ فيهِ أبوابُ الجحيمِ[1]، وتغلُّ فيهِ الشياطينُ، فيهِ ليلةٌ خيرٌ مِنْ ألفِ شهرٍ، مَنْ حُرِمَ خيرَها فقدْ حرِمَ".**

- *وفي رواية:* **أتاكم شهرُ رمضانَ، شهرٌ مبارَكٌ، فرض اللهُ عليكم صيامَه، تفتحُ فيه أبوابُ الجنَّةِ، وتُغلَق فيه أبوابُ الجحيم، وتُغَلُّ فيه مَرَدَةُ الشياطينِ[2]، وفيه ليلةٌ هي خيرٌ من ألف شهرٍ، من حُرِمَ خيرَها فقد حُرِمَ ".** (صحيح الجامع:٥٥)

فالبدار... البدار، فإنما هي الأنفاس لو حُبست عنا انقطعت أعمالنا التي نتقرب بها إلى الله تعالى.

١- تُفتَّحُ فيه أبوابُ الجَنَّةِ، وتُغلَقُ فيه أبوابُ الجَحيمِ: والفَتحُ والغَلْقُ المَذْكورانِ هُما على الحَقيقةِ؛ إكْرامًا مِن اللهِ لِعِبادِهِ في هذا الشَّهرِ، وقيل: إنَّ غَلْقَ أبوابِ النَّارِ مَعناهُ مَزيدٌ لِغَلْقِ كلِّ مَسلَكٍ مِن مَسالِكِ الشَّرِّ، وإنَّ فَتْحَ أبوابِ الجنَّةِ هو مَزيدٌ لفَتْحِ كلِّ مَسلَكٍ مِن مَسالِكِ الخيرِ.

٢- وتُغَلُّ فيه مَرَدَةُ الشياطينِ: أي: تُشَدُّ الأغلالُ والسَّلاسِلُ على مَرَدَةِ الجِنِّ، وهم رُؤَساءُ الشَّياطينِ المتجرِّدونَ للشَّرِّ، أو هُمُ العُتاةُ الشِّدادُ مِن الجِنِّ، والحِكمةُ من تَغْليلِهِم حتَّى لا يَعمَلوا بالوَساوِسِ للصَّائِمينَ ويُفسِدوا عليهم صَوْمَهُم.

٨- يا باغي الشر: أقصر عن الشح في رمضان، وفي غيره من سائر الأيام:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:٩)

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (الليل:٨-١٠)

أي من بخل واستغنى بالدنيا عن الآخرة، أو من بخل بماله واستغنى عن ربه تعالى وكذَّب بالحسنى أي بالجزاء في الدار الآخرة، فسييسره الله تعالى للشر ولا يُغني عنه ماله إذا هلك.

وأخرج الإمام مسلم من حديث جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ"

ومما يدل كذلك على أن البخل هلاك ما أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: خَشْيَةُ اللَّهِ تعالى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ ". (صحيح الجامع: ٣٠٣٩)

وأخرج الإمام مسلم عن أبي أمامة صُدَيّ بن عجلان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ".

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر-رضي الله عنهما- قالت: قال لي رسول الله ﷺ: " لَا تُوكِي[١] فَيُوكَأُ عَلَيْكِ[٢] ". ***وفي رواية:*** " لاَ تُحْصِي[٣] فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ ".

(أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن عائشة -رضي الله عنها-)

وقال النووي-رحمه الله- كما في شرحه على مسلم:٧/١٢٥: " وقول النبي ﷺ: " لاَ تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ" ***وفي الرواية الأخرى:*** " لَا تُوكِي فَيُوكَأُ عَلَيْكِ" ومعناه: يمنعك كما منعت، ويقتر عليك كما قترتِ، ويمسك فضله عليك كما امسكتيه وقيل: معنى:" لاَ تُحْصِيَ" أي: لا تعديه فتستكثريه فيكون سببًا لانقطاع إنفاقك". اهـ

- وفي رواية عند البخاري عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما- قالت: قال رسول الله ﷺ: " لَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ، ارْضَخِي[٤] مَا اسْتَطَعْتِ "، أي: لا تمنعي ما في يدك فتنقطع مادة بركة الرزق عنك.

وأخرج البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: " لاَ تُوكِئِي فيُوكَأَ عليكِ ".

١- وقوله:" لَا تُوكِي": قال الخطابي: أي لا تدخري، والإيكاء: شد فم الوعاء بالوكاء، وهو الحبل أو الرباط الذي يربط به الوعاء.

٢- وقوله:" لَا تُوكِي فَيُوكَأَ عَلَيْكِ": أي لا تضيقي فيضيق الله عليك، وأما قوله:" لاَ تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ": والمعنى كما يقول الحافظ بن حجر- رحمه الله- في الفتح ٣/٣٠٠:" النهي عن منع الصدقة خشية النفاد، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة، لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحسب عند الجزاء لا يحسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله تعالى يرزقه من حيث لا يحتسب فحقه أن يعطي ولا يحسب". اهـ

٣- لاَ تُحْصِي: أي لا تعدي ما تعطي، من الإحصاء، وهو العدُّ.

٤- الرَّضْخ: هو العطاء اليسير.

وأخرج البزار والطبراني في الكبير عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ على بلال وعنده صُبَرٌ من تمر، فقال:" مَا هَذَا يَا بِلالُ؟" قال: ادخرته لك يا رسول الله، قَالَ:" أَمَا تَخْشَى أَنْ يُجْعَلَ لَكَ بُخَارٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ؟ أَنْفِقْ بِلالُ وَلا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلالا ". (صحيح الترغيب والترهيب: ٩٢١)

وفي رواية عند أبي يعلى والطبراني في الكبير والأوسط عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ عاد بلالًا فأخرج له صبرًا من تمرٍ، فقال:" مَا هَذَا يَا بِلالُ؟" قال: ادخرته لك يا رسول الله، قَالَ:" أَمَا تَخْشَى أَنْ يُجْعَلَ لَكَ بُخَارٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ؟ أَنْفِقْ بِلالُ وَلا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلالا ". (صحيح الترغيب والترهيب: ٩٢٢)

يقول الحسن البصري –رحمه الله– كما في شعب الإيمان للبيهقي: " كُنَّا نَعُدُّ البخيل الذي يُقرض أخاه".

إذا بخل الإنسان على الفقراء فإنما يبخل على نفسه:

فقد أخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند صحيح عن أبي قتادة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ابْتَاعُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ مَالِ اللَّهِ، فَإِنْ بَخِلَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُعْطِيَ مَالَهُ لِلنَّاسِ فَلْيَبْدَأْ بِنَفْسِهِ، وَلْيَتَصَدَّقْ عَلَى نَفْسِهِ، فَلْيَأْكُلْ وَلْيَكْتَسِ مِمَّا رَزَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ". (السلسلة الصحيحة: ١٠٩٦)

والصدقة على النفس هي الصدقة على الفقراء، لأن ثوابها راجع إلى المتصدق، **قال تعالى:**" وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا". (المزمل: ٢٠)

وإذا بخل على الفقراء فإنما يبخل على نفسه، قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾. (محمد: ٣٨)

وكان معاذ النَّسَفي–رحمه الله– يقول:" من لم ير نفسه أحوج إلى ثواب صدقته من الفقير فهو ممن أبطل صدقته بالمنّ، لأنه رأى نفسه على الفقير".

وكان رسول الله ﷺ أعظم النَّاس وأكثرهم جودًا على الإطلاق، وكان جوده يبلغ الغاية في شهر رمضان.

أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس–رضي الله عنهما– قال: " كانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ أجْوَدَ النَّاسِ، وكانَ أجْوَدَ ما يَكونُ في رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ في كُلِّ لَيْلَةٍ مِن رَمَضَانَ، فيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ أجْوَدُ بالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ ".

– *زاد الإمام أحمد في روايته:* " لا يُسأل عن شيء إلا أعطاه ".

ويستفاد من قول ابن عباس رضي الله عنهما:" أَجْوَدُ بالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ" سرعة مبادرته ﷺ في الجود والإحسان في رمضان، واستنفاع الجميع بذلك كما هي سرعة الريح المرسلة، وعمومها لجميع ما تهب عليه.

قال ابن حجر-رحمه الله-في" الفتح:٤/١٣٩: " قال الزين بن المنير: وجه التشبيه بين أجوديته ﷺ بالخير وبين أجودية الريح المرسلة أن المراد بالريح ريح الرحمة التي يرسلها الله تعالى لإنزال الغيث العام الذي يكون سببًا لإصابة الأرض الميتة وغير الميتة، أي فيَعُمُّ خيره وبره من هو بصفة الفقر والحاجة، ومن هو بصفة الغنى والكفاية أكثر مما يعم الغيث الناشئة عن الريح المرسلة". اهـ.

وقال الشافعي-رحمه الله-: " أحب للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان، اقتداء بالرسول ﷺ لحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، وانشغال كثير منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم ". اهـ

والمتأمل في سيرة النبي ﷺ يجد أن الجود من أكثر سجاياه، وما كان يدخر شيئًا عنده من خير عن الناس، وما سئل شيئًا قط فقال: لا.

وأخرج البخاري عن سهل بن سعد ﷺ: **أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتِ النَّبِيَّ ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ، فَقَالَتْ: نَسَجْتُهَا بِيَدِي لِأَكْسُوَكَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا لِإِزَارُهُ(١)، فَحَسَّنَهَا فُلاَنٌ، فَقَالَ: اكْسُنِيهَا مَا أَحْسَنَهَا، فَقَالَ النَّبِيَّ ﷺ:" نَعَمْ"، فَجَلَسَ النَّبِيُّ فِي المَجْلِسِ ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَاهَا وَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيهِ، فَقَالَ لَه القَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لاَ يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَهَا، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي، قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ ".**

وفي صحيح مسلم عن أنس ﷺ ***قال:*** **" ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئا إلا أعطاه، فجاءه رجلٌ فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة".**

ولله درُّ القائل:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الـكَفِّ حتى لو أنَّـه ... ثناها لقبضٍ لـمْ تُجبهُ أناملُهْ

تـراه إذا جِئتـه مُتَـهَلِّلًا ... كأنك تُعْطِيـه ما أنـت سائـلُهُ

هُوَ البَحْرُ مِنْ أَي النَّواحي أتيتَهُ ... فلُجَّتُه المعروفُ والجُودُ سَاحِلُهُ

ولو لم يكنْ في كفِهِ غيرُ روحِهِ ... لجـادَ بها، فليتقِ اللهَ سـائلُـهُ

ويزداد عطاء الإنسان في رمضان لأسباب منها:

شرف الزمان ومضاعفة الأجر فيه. **ومنها:** إعانة الصائمين والقائمين على طاعاتهم، فينال من أعانهم مثل أجرهم. **ومنها:** أن الجزاء من جنس العمل، فمن جاد على عباد الله جاد الله عليه، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء. **ومنها:** أن الصائم لا بد أن يقع منه خلل ونقص، والصدقة تجبر ما فيه من الخلل والنقص، ولذلك شرعت صدقة الفطر.

(١) الإزَارُ: ما يلبس في أسفل البدن لستر العورة.

ولا تبخل بمالك في رمضان ولا في غيره من سائر الأيام، ومما يزيدك بذلًا وعطاءً أن تعرف أن الصدقة يضاعفها الله عز وجل لصاحبها إلى سبعمائة ضعف إلى إضعاف كثيرة.

قال تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن:١٧)

كان يحيى بن معاذ الرازي-رحمه الله- يقول: "عجبتُ ممن يبقى معه مال وهو يسمع قوله تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ...﴾. (التغابن:١٧)

قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة البقرة:٢٤٥)

ومجرد تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه الجليل العظيم، كفيل بأن يطير إلى البذل طيرانًا، والناس في الدنيا يفتخرون بأنهم أقرضوا فلانًا الثري، لأنهم يعلمون أن السداد مضمون، فكيف إذا كانوا يقرضون الله الغني!

فالله يضاعف لكل من أنفق في سبيله، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة.

كما قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ٢٦١)

وأخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي من حديث خزيم بن فاتك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُتِبَتْ لَهُ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ". (صحيح الجامع: ٦١١٠)

قال تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٥)

- **ومن تصدق بصدقة من كسبٍ طيبٍ يقبلها الله ويربيها له حتى تكون يوم القيامة مثل الجبل:**

ودليل ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ[1] مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إلا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ[2] حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ ".

يقول الحافظ ابن حجر-رحمه الله- في" فتح الباري:١١/٤٠٥": وفي الحديث الحث على الصدقة، وقبول الصدقة ولو قَلَّتْ، وقد قيدت في الحديث بالكسب الطيب، وفيه إشارة إلى ترك احتقار القليل من الصدقة وغيرها. اهـ

١- بعَدْلِ تَمْرَةٍ: أي قيمتها، فإذا فتحت العين: يعني المثل، وبكسر العين: يعني الحِمْل، وهذا قول الجمهور، وقال الفراء: بالفتح المثل من غير جنسه، وبالكسر من جنسه، وقيل: بالفتح مثله في القيمة، وبالكسر في النظر. (انظر فتح الباري: ٣/٢٧٩)
وقال ابن الأثير- رحمه الله - في "النهاية ٣/١٩١": العِدْلُ والعَدْلُ بالكسر والفتح في الحديث: وهما بمعنى المثل، وقيل: هو بالفتح ما عادله من جنسه، وبالكسر ما ليس من جنسه، وقيل بالعكس. أهـ

٢- فَلُوَّهُ: بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو، وهو المهر كما جاء مفسرًا في رواية الترمذي. وسمي بذلك لأنه يُفْلَى: أي يفطم، وقيل: هو كل فطيم من ذوات حافر: أي من أولاد ذوات الحافر (انظر النهاية في غريب الحديث:٣/٤٧٤) (شرح النووي:٧/١٠٤)

اعلم أخي الحبيب أن مالك الحقيقي هو الذي تقدمه بين يديك وتتصدق به، وما تتركه فهو للورثة.

فقد أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" فَإِنَ مَالَكَ مَا قَدَّمْتَ، وَمَالَ وَارِثِكَ مَا أَخَّرْتَ ".**

وصدق ربنا حيث قال:" وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ". (المزمل: ٢٠)

والنبي ﷺ يُعلم عائشة –رضي الله عنها– هذا الأصل الأصيل من دين رب العالمين.

ففي الحديث الذي أخرجه الترمذي من حديث عائشة–رضي الله عنها– أنهم ذبحوا شاةً فقال النبي ﷺ:

" مَا بَقِيَ مِنْهَا؟" قالت: ما بقي منها إلا كتفها[1] فقال النبي ﷺ:" بَقِيَ كُلُّهَا إلا كَتِفَهَا ". (صححه الألباني)

وأخرج الإمام مسلم من حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه ﷺ قال: **أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقال:" يقولُ ابنُ آدمَ: مالي مَالي، وهَلْ لَك يا بْن آدمَ مِنْ مَالِكَ إلا ما أكلتَ فأفْنَيتَ، أو لَبِستَ فأبْلَيْتَ، أو تصدَّقْتَ فأمْضَيْتَ؟".**

– *وفي رواية عند مسلم أيضا من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:*" يَقُولُ الْعَبْدُ مَالِي مالي، إنما لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فأقنى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ". فما دام المال في اليد فهو فانٍ، وبالتصدق يصير باقيًا، **قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾** (النمل:٩٦).

تنبيه: ومما يؤكد على ما سبق – وهو أن المال الحقيقي هو الذي يتصدق به الإنسان وما سوى ذلك فهو لورثته – ***ما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:*** **" يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاَثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ ".**

والمعنى واضح مفهوم: حيث أن المال الذي يرجع مع الأهل هو الذي لم يتصدق به فهو ليس بماله وهو مال الورثة، وأما ماله الذي تصدق به فهو من جملة الأعمال الصالحة التي تبقى معه في قبره.

وروي عن محمد بن كعب القرظي –رحمه الله– أنه أصاب مالًا كثيرًا، فقيل له: لو ادخرته لولدك من بعدك؟ فقال: لا، ولكني أدخره لنفسي عند ربِّي، وأدخر ربِّي لولدي".

وعُوتب سهل بن عبد الله في كثرة الصدقة، فقال: لو أن رجلًا أراد أن ينتقل من دار إلى دار أكان يبقي في الأول شيئًا؟

وهناك الكثير والكثير من فضائل الصدقة، لا يتسع هذا المقام لذكرها[2].

١- ما بقي منها إلا كتفها: يعني أنهم تصدقوا بها إلا كتفها، فبقي ما تصدقوا به ذخرًا لهم عند الله تعالى.
٢- هناك رسالة للمؤلف خاصة بفضل الصدقة، ضمن سلسلة:" الكتاب الجامع للفضائل" فارجع إليها فضلًا لا أمرًا.

٩- يا باغي الشر: أقصر عن أكل الحرام، فإنه مانع من استجابة الدعاء وقبول الأعمال:

فمن الناس من تراه في رمضان يصوم عن الحلال من الطعام والشراب والزوجة، لكنه منغمس في أكل الحرام. ***وقد جاء في الحديث الذي أخرجه أبو نعيم بسند صحيح عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:*** " إنَّ رُوحَ القُدُسِ[١] نفثَ[٢] في رُوعِي[٣]، أنَّ نفسًا لَن تموتَ حتَّى تستكمِلَ أجلَها، وتستوعِبَ رزقَها، فاتَّقوا اللهَ، وأجمِلُوا في الطَّلَبِ[٤]، ولا يَحمِلَنَّ أحدَكم[٥] استبطاءُ الرِّزقِ[٦] أن يطلُبَه بمَعصيةِ اللهِ[٧]، فإنَّ اللهَ تعالى لا يُنالُ ما عندَه إلَّا بِطاعَتِهِ ". (صحيح الجامع: ٢٠٨٥)

ففي هذا الحديث يبين النبي ﷺ أن هناك فئة من الناس يحملها ضيق أو استبطاء الرزق أن تطلبه بمعصية الله تعالى فلم يتركوا بابًا من أبواب الحرام إلا فتحوه، ولا طريقًا مشبوهًا إلا سلكوه، ولا يبالي أحدهم من أين كان مطعمه أمن حلال أم من حرام.... وإلى الله المشتكى.

وصدق الحبيب النبي ﷺ حيث قال: " لَيَأْتِيَنَّ علَى النَّاسِ زَمانٌ، لا يُبالِي المَرْءُ بما أخَذَ المالَ، أمِنْ حَلالٍ أمْ مِن حَرامٍ ". (رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ)

وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ النَّبيُّ ﷺ أنَّ النَّاسَ سَوفَ تَتغيَّرُ بهم الأحوالُ، وتَتبدَّلُ بهم الأزمانُ، ويَأتي عليهم زَمانٌ يَضْعُفُ فيه الدِّينُ، وتَفسُدُ الضَّمائرُ والذِّممُ، ويَتكالَبُ النَّاسُ فيه على جَمْعِ المالِ، ولا يُبالي المَرءُ مِن أينَ أصابَ المالَ؛ مِن حَلالٍ أو حَرامٍ، فلا تُهِمُّه الوَسيلةُ الَّتي اكتَسَبَ بها المالَ، والطَّريقُ الَّذي أَخَذَه مِنه، سواءٌ كان مِن كَسْبٍ حَلالٍ، كالبيعِ المَبرورِ، وعَمَلِ اليدِ، أمْ مِن الحرامِ، كالاختِلاسِ والرِّبا، والقِمارِ والرِّشْوةِ، وغيرِها، فَهَدَفُهم وغايتُهم جَمْعُ الأموالِ والتَّكسُّبُ دونَ تَحرِّي الحَلالِ والحرامِ. (الدرر السنية)

يقول ابن كثير-رحمه الله- في" تفسيره:١/٢٥٠": **عند قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة: ١٧٢) يقول الله تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم الله تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة ".

وصدق ابن كثير-رحمه الله- فكما أن أكل الحرام يمنع قبول الدعاء، فهو كذلك سبب لعدم قبول العبادة.

١- إنَّ رُوحَ القُدُس: أي جبريلَ عليه السَّلامُ.
٢- نَفَثَ: أي أوحى.
٣- في رُوعِي: أي في نَفْسي وقَلْبي.
٤- وأَجْمِلوا في الطَّلَبِ"، أي: اسْعَوْا في طلَبِ الدُّنيا باعتدالٍ دُونَ إفراطٍ أو تَفريطٍ، واطْلُبوا الحَلالَ برِفْقٍ؛ لأنَّ الرِّفْقَ لمْ يَكُنْ في شَيءٍ قَطُّ إلَّا زَانَه، ولَا مُنِعَ من شَيءٍ إلَّا شانَه، فَطَلَبُ الرِّزْقِ برِفْقٍ أجْمَلُ من طَلَبِه بِعُنْفٍ، واتْرُكوا أَخْذَ الحرامِ، كما في روايةِ ابْنِ مَاجَهْ من حديثِ جَابِرٍ ﷺ: "خُذُوا ما حَلَّ، ودَعوا ما حَرُمَ".
٥- ولا يَحْمِلَنَّ أحدَكُمْ: أي: لا يَدْفعنَّه.
٦- اسْتِبْطاءُ الرِّزْقِ: أي: تأخُّرُ الرِّزْقِ، وهذا فيما يَراهُ، ولكنَّ قَدْرَ الرِّزْقِ وموعدَه مُقدَّرٌ عند اللهِ.
٧- أنْ يَطْلُبَهُ بمعصيةِ اللهِ: ومعلومٌ أنَّ الرِّزْقَ لا يَتأخَّرُ عن وَقْتِه، ولكنَّ الإنسانَ قد يَستعجِلُه قبْلَ وقْتِه المُقدَّرِ، فإذا لم يأتِ قبْلَ ذلك الوَقْتِ اسْتَبْطَأَهُ فطَلَبَه من الحرامِ.

إما كون أكل الحرام يمنع قبول الدعاء فدليله ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " أَيُّها النَّاسُ، إنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللَّهَ أمَرَ المُؤْمِنِينَ بما أمَرَ به المُرْسَلِينَ، فقالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون:٥١)، وقالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة:١٧٢)، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أشْعَثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّماءِ، يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطْعَمُهُ حَرامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ، فأنَّى يُسْتَجابُ لذلكَ؟!".

فإذا نظرت لحال هذا الرجل رأيته جاء بأربعة أسبابٍ يستجاب معها الدعاء: فإنه مسافر، وللمسافر دعوة مستجابة،" **أشعث أغبر**" أي حُصولُ التَّبذُّلِ في اللِّباسِ والهيئةِ وهو أدعى لقبول الدعاء، ورفع يديه إلى السماء والله تعالى حيي يستحي إذا رفع عبده إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبة، والإلحاحُ على اللهِ في الدعاء، فقال:" **يارب يارب**" والله يحب هذا، ومع كل هذا الأمور إلا أنه لم يقبل له دعاء، لأنه مطعمه ومشربه وملبسه حرام، وغذي من حرام.... **فأكل الحرام يرد الدعاء.**

يقول ابن رجب-رحمه الله- في الحديث السابق: " أكل الحرام، ومشربه، ولبسه، والتغذي به، سبب موجب لعدم إجابة الدعاء ". (جامع العلوم والحكم ص: ٩٢)

وقال الإمام النووي-رحمه الله- في" شرحه على مسلم:٧/١٠٤": " في الحديث الحث على الإنفاق من الحلال، والنهي عن الإنفاق من غيره، وفيه: أن المأكول، والمشروب، والملبوس ينبغي أن يكون حلالًا خالصًا لا شبهة فيه، وأن من أراد الدعاء كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره ".

وكما أن أكل الحرام سبب في عدم قبول الدعاء، فهو كذلك سبب لعدم قبول الأعمال.

وقال ابن رجب-رحمه الله- أيضًا في" كتابه جامع العلوم والحكم ص: ٣٩: " وفي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ (المؤمنون:٥١) المراد بهذا أنَّ الرُّسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فمتى كان الأكل حلالًا فالعمل الصالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال فكيف يكون العمل مقبولًا؟

قال ابن كثير-رحمه الله- في" تفسير الآية السابقة": " يأمر الله تعالى عباده المرسلين- عليهم الصلاة والسلام أجمعين- بالأكل من الحلال، والقيام بالعمل الصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح ". اهـ (تفسير ابن كثير:٣/٢٣٨)

فالله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، فالمال الحرام لا يقبله الرحمن وعمل صاحبه مردود عليه.

فقد أخرج الطبراني في الأوسط بسند فيه مقال من حديث أبي هريرة ﷺ أن الحبيب النبي ﷺ قال: **" إذا خرج الحاجُّ حاجًّا بنفقةٍ طيبةٍ، ووضع رجلَيهِ في الغرزِ[1]، فنادى: لبيك اللهم لبيكَ، ناداه منادٍ من السماءِ: لبيك وسعديكَ، زادُك وراحلتُك حلالٌ، وحجُّكَ مبرورٌ غيرُ مأزورٍ، وإذا خرج بالنفقةِ الخبيثةِ فوضع رجلَه في الغرزِ فنادى: لبيك، ناداه منادٍ من السماءِ: لا لبيك ولا سعديكَ، زادُك حرامٌ، ونفقتُك حرامٌ، وحجُّك غيرُ مبرورٍ".** (السلسلة الضعيفة: ٤٤٠٣)

فالحج مردود غير مقبول بسبب النفقة الحرام. **وقد قيل:**

يا من أردت الحج بمال أصله سحت ... فما حججت ولكن حجت العير

لا يقبل الله إلا كل طيب فما ... كل من حج بيت الله مقبول

وإن كان الحديث السابق ضعيفًا إلا أن المعنى صحيح وتشهد له أحاديث صحيحة منها: **" لا تُقْبَلُ صَلاةٌ بغيرِ طُهُورٍ ولا صَدَقَةٌ مِن غُلُولٍ[2] ".**

فأكل الحرام سبب لعدم قبول الأعمال.

يقول ابن عباس-رضي الله عنهما-: **" لا يقبل الله صلاة امرئ في جوفه حرام، [حتى يتوب إلى الله تعالى منه]".** (جامع العلوم والحكم لابن رجب ص: ٩٣)

- ***ويقول وهب بن الورد-رحمه الله-:*** " لو قمت قيام السارية ما نفعك حتى تنظر ما يدخل بطنك أحلال أم حرام ". (المصدر السابق)

- ***ويقول سفيان الثوري-رحمه الله-:*** " من أنفق الحرام في الطاعة كان كمن طهر الثوب بالبول، والثوب لا يطهره إلا الماء، والذنب لا يكفره إلا الحلال ".

- ***ويقول يوسف بن أسباط-رحمه الله-:*** " إذا تنسك الشاب، قال الشيطان لأعوانه: انظروا من أين مطعمه؟ فإن كان مطعم سوء، قال: دعوهُ يتعب ويجتهد فقد كفاكم نفسه، إن اجتهاده مع أكل الحرام لا ينفعه ". (مختصر شعب الإيمان)(إحياء علوم الدين للغزالي)

- ***وقال ميمون بن مهران-رحمه الله-:*** " لا يكون الرجل تقِيًّا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك الشحيح لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه ".

- ***يقول الفضيل بن عياض-رحمه الله-:*** سئل سفيان الثوري عن فضل الصف الأول، فقال: انظر كسرتك التي تأكل، من أين تأكلها؟ وصل في الصف الأخير ". (يعني لا يضرك لو صليت في الصف الأخير)

١- الغرز: ركاب من جلد.

٢- الغُلول: وهو ما سُرِقَ وأُخِذَ مِنَ الغَنيمةِ قبلَ أن تُقَسَّمَ، وسُمِّيَت بذلك لأنَّ الآخِذَ يغُلُّ المالَ في مَتاعِه، أي: يُخفيه فيه، ويُطلَقُ على الخيانةِ مُطلَقًا، والمُرادُ منه هنا مُطلَقُ المالِ الحرامِ، أُخِذَ خُفيةً أو جَهرةً، ويَشمَلُ النَّهيُ كلَّ المالِ العامِّ.

- ***ويقول أبو عبد الله الناجي الزاهد-رحمه الله-:***" خمس خصال بها تمام العمل: الإيمان بالله عز وجل، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال، فإن فقدت واحدة لم يرتفع العمل ".

وذلك إذا آمنت بالله تعالى ولم تعرف الحق لم تنتفع، وإذا عرفت الحقَّ ولم تعرف الله لم تنتفع، وإذا عرفت الله وعرفت الحق ولم تخلص العمل لم تنتفع، وإن عرفت الله وعرفت الحق وأخلصت العمل ولم يكن على السنة لم تنتفع، وإن تمت الأربع ولم يكن الأكل من حلال لم تنتفع ".

(جامع العلوم والحكم لابن رجب رحمه الله ص: ٣٩)

فإذا نظرت إلى من يأكل الحرام تجده في قلق، واكتئاب، واضطراب في النفس، ضيق في الصدر، وسواد في الوجه، ودعاء مردود، وعمل غير مقبول. وفي الآخرة فعذاب النار وغضب الجبار سبحانه.

فقد أخرج الطبراني من حديث أبي بكر الصديق ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " **كلُّ جَسَدٍ نبتَ مِنْ سُحْتٍ فالنارُ أولَى بِهِ** ". **(صحيح الجامع: ٤٥١٩)**

- ***وفي رواية:*** " **إنَّهُ لا يربو لحمٌ نبتَ من سحتٍ إلَّا كانتِ النَّارُ أولى بِهِ** ". **(صحيح الترمذي: ٦١٤)**

فيا من تجمع من الحرام:

دع الحـرص على الدنيا ... وفي العيش فلا تطمع
لا تجمع من الحرام فإنك ... لا تـدري لمن تجمــع
فـإن الــرزق مقســـوم ... وســوء الظـن لا ينفع
فقير كـــل مـن يطمـع ... غني كـل مــن يقنــع

(عقلاء المجانين لابن حبيب)

ولله در القائل:

النفس تجـزع أن تكـون فقيـرة ... والفقـر خـير مــن غنى يطغيهـــا
وغنى النفوس هـو الكفاف فإن ... أبت فجميع ما في الأرض لا يكفيها
هي القناعــة فالزمها تكن ملكًا ... لــو لــم تكــن لك إلا راحــة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هـل راح منها بغـير الطيب والكفن

١٠- يا باغي الشر: أقصر عن الإسراف في تناول الطعام والشراب:

فالناس في رمضان يستكثرون من تناول ألوان الطعام والشراب، يرددون: "حيَّاك الله يا رمضان بالقرع والباذنجان"، فترى الناس في رمضان ينفقون الأوقات والأموال في إعداد أصناف الطعام، فإذا أكلوا فإنهم يأكلون أكل المنهومين، ويشربون شرب الهيم، فيكون رمضان شهر التخمة والسمنة وأمراض المعدة،

وهؤلاء الذين قال عنهم النبي ﷺ كما عند البيهقي: **" شرار أمتي الذين غُذُّوا بالنعم، الذين يأكلون ألوان الطعام، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدقون في الكلام ".**

وصدق القائل حين قال:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربح فيما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

فمن أراد أن يفوز برمضان، ويستشعر حلاوة الإيمان، ويتمتع بقراءة القرآن، ويتلذذ بطول القيام؛ فعليه ألا يُكثِر من الطعام والشراب، **امتثالا لقوله تعالى:** ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[1] (الأعراف: ٣١)

وقد نقل عن بعض السلف أنه قال: " إن الله جمع الطب كله في هذه الآية ".

وقال ابن القيم-رحمه الله- في "زاد المعاد" تعليقًا على هذه الآية:"... فمتى جاوز ذلك كان إسرافًا، وكلاهما مانع للصحة جالب للمرض، أعني عدم الأكل والشرب أو الإسراف فيه، فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين". اهـ.

وقال الإمام الماوردي-رحمه الله- في تفسير الآية السابقة: " أي: لا تسرفوا في أكل ما زاد على الشبع؛ فإنه مُضِرٌّ ". (تفسير الماوردي المسمى النكت والعيون:٢/ ٢١٨)

وقال الإمام القرطبي-رحمه الله- في تفسيره:٧/ ١٩٥: " الإسراف هو: الأكل بعد الشبع ".

وقال الإمام الشوكاني-رحمه الله- في تفسيره "فتح القدير:٢/ ٢٠٠": " ومن الإسراف الأكل لا لحاجة، وفي وقت شبع ".

وأخرج البخاري معلقًا بصيغة الجزم[2] عن ابن عباس-رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: **" كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ، وَلَا مَخِيلَةٍ[3]".** (صحيح الجامع:٤٥٠٥)

وكان ابن عباس- رضي الله عنهما- يقول: **" كل ما شئت، والبس ما شئت ما اخطأتك اثنتان: إسراف أو مخيلة ".** (انظر تفسير الطبري:٥/ ٤٧٢، وتفسير ابن أبي حاتم:٥/ ١٤٦٥، وتفسير ابن عطية:٢/ ٣٩٣)

- وفي رواية: **" أحل الله الأكلَ، والشربَ، ما لم يكن سرفًا، أو مخيلة ".**

١- الإسراف: هو مجاوزة حد الاعتدال.
٢- ووصل هذا الحديث ابن ماجه.
٣- المَخِيلة: هو الاختيال والكبر.

وقد ذكر البيهقي كما في" شعب الإيمان:٥/٢٢"عن الحليمي-رحمه الله- أنه قال: وكل طعام حلال، فلا ينبغي لأحد أن يأكل منه ما يثقل بدنه؛ فيحوجه إلى النوم، ويمنعه من العبادة، وليأكل بقدر ما يسكن جوعه، وليكن غرضه من الأكل أن يشتغل بالعبادة ويقوى عليها ". اهـ

وعلى هذا ينبغي على الإنسان منا أن يقوم عن الطعام قبل الشبع.

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ[١]، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكَلَاتٌ يُقِمْنَ[٢] صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ ". (صحيح الترمذي:٢٣٨٠) (صحيح الجامع:٥٦٧٤)

- ***وفي رواية:*** " مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ[٣] يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتْ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ ".

ورواه ابن حِبَّانَ في صَحِيحِهِ بلفظ: " فَحَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكَلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ ".

- ***وَفِي لَفْظِ ابْنِ مَاجَه:*** " فَإِنْ غَلَبَتْ ابْنَ آدَمَ نَفْسُهُ فَثُلُثًا لِطَعَامِهِ، وَثُلُثًا لِشَرَابِهِ، وَثُلُثًا لِنَفَسِهِ ".

وقال الحافظ ابن رجب-رحمه الله- في كتابه الماتع" جامع العلوم والحكم٢:/ ٤٨٦" عند شرح هذا الحديث: " إنه أصل عظيم جامع لأصول الطب كلها، وقد روي أن ابن ماسَوَيه الطبيب[٤] لما قرأ هذا الحديث في كتاب أبي خيثمة قال: لو استعمل الناس هذه الكلمات يعني من قوله ﷺ:"... بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكَلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ؛ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ". لسلموا من الأمراض، والأسقام ولتعطلت المارستانات[٥] ودكاكين الصيادلة. فقال الحافظ ابن رجب: وإنما قال هذا؛ لأن أصل كل داء التخم. اهـ

وقال السفاريني-رحمه الله- في" غذاء الألباب:٢/١١٠": " ينبغي للآكل أن يجعل ثلثا للطعام، وثلثا للشراب، وثلثا للهواء، امتثالا لما قال الرسول ﷺ الشفيق الناصح لجميع الخلق المرشد للمنافع الدينية والدنيوية، والمنقذ من الهلاك والمفاسد ﷺ فهو الحكيم الناصح، والعليم الذي أتى بالعلم النافع، والحق الواضح، **وقد قال الحارث بن كلدة طبيب العرب:**" الحمية رأس الدواء، والبطنة رأس الداء ". اهـ

١- قال طبيب العرب ابن كلدة: المعدة بيت الداء.

٢- يُقِمْنَ: مِنْ الْإِقَامَةِ وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى الْغِذَاءِ الضَّرُورِيِّ.

٣- لُقَيْمَات: تَصْغِير لُقْمَة.

٤- ابن ماسَوَيه: هو يوحنا بن ماسَويه، مسيحي المذهب سرياني، قلَّده هارونُ الرشيدُ الخليفةُ العباسيُّ ترجمةَ الكتب الطبية القديمة، ووضع له كُتَّابًا حُذَّاقًا يكتبون، وخَدَمَ أيضًا الأمينَ والمأمونَ، وبقي على ذلك إلى أيام المتوكل، وكانت ملوك بني هاشم لا يتناولون شيئًا من أطعمتهم إلا بحضرته، وكان مُعَظَّمًا ببغداد، جليل المقدار، وله كتب كثيرة في الطب تركها بعده، استفاد منها الناس، توفي سنة ٢٤٣هـ.
(انظر ترجمته في طبقات الأطباء والحكماء؛ لابن جلجل ص٦٥، والأعلام للزركلي:٨/ ٢١١)

٥- تعطلت المارستانات: المارستان: هي دار المَرْضَى، أو المستشفى. (انظر الصحاح ص: ٦٢١).

وقال صاحب فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين: " **وقوله:**" **مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ** "، الوعاء هو الظرف الذي يُوضَع فيه الشيء، وشرُّ وعاء مُلئ هو البطن؛ لِمَا في ذلك من التُّخمة، والتسبُّب في حصول الأمراض، ولِمَا يورثه من الكسل والفتور والإخلاد إلى الراحة. **وقوله:**" **بِحَسْبُ ابْنِ آدَمَ أَكَلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ**"، المعنى: يكفي ابن آدم عددٌ من الأكلات التي تحصل بها حياته، وهو معنى قوله:" **يُقِمْنَ صُلْبَهُ**"، أي: ظهره، وفي ذلك حثٌّ على التقليل من الأكل وعدم التوسُّع فيه؛ ليحصلَ للإنسان الخفَّة والنشاط والسلامة من التعرُّض للأمراض والأسقام التي تنتج عن كثرة الأكل. **وقوله:**" **فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**"، المعنى: إذا لم يكتف الإنسانُ بأكلات يُقمن صلبَه، وكان لا محالة زائدًا عن هذا المقدار فليكن مقدار ما يُؤكل ويُشرب في حدود ثلثي البطن؛ ليبقى ثلثٌ يُمكن معه التنفس بسهولة ". اهـ

وقال العلامةُ أحمد الساعاتي في" الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد:١٧/ ٨٨": " خلق الله البطن لكي يتقوَّم به الصلب، وامتلاؤه يُفضِي إلى مضار كثيرةٍ، منها: كثرة المرض غالبًا، والكسل؛ فيمنعه التعبُّد، ويكثر فيه مواد الفضول، فيكثر غضبه وشهوته، وأكلات جمع أكلة؛ وهي: اللقمة[1] في أن معنى الأكلة هي اللقمة، وهذا مما يفسر بعض روايات الحديث عند ابن ماجه وابن حبان بلفظ "**لقمة**" بدل "**أكلة**"؛ أي: يكفيه هذا القدر، في سد الرَّمَق وإمساك القوة في إقامة صلبه- وهو ظهره- بما يحفظه من السقوط، ويتقوَّى على الطاعة، وهذا غاية ما اختير للأكل ". اهـ

وأخرج البخاري عَنْ نَافِعٍ قَالَ: **كَانَ ابْنُ عُمَرَ -رضي الله عنهما- لاَ يَأْكُلُ حَتَّى يُؤْتَى بِمِسْكِينٍ يَأْكُلُ مَعَهُ، فَأَدْخَلْتُ رَجُلًا يَأْكُلُ مَعَهُ، فَأَكَلَ كَثِيرًا، فَقَالَ: يَا نَافِعُ! لاَ تُدْخِلْ هَذَا عَلَيَّ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: المُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، والكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ ".**

قال ابن رجب -رحمه الله- في جامع العلوم والحكم: " والمراد أن المؤمن يأكل بآداب الشرع فيأكل في معي واحد، والكافر يأكل بمقتضى الشهوة والشره والنهم فيأكل في سبعة أمعاء وندب ﷺ مع التقلل من الأكل والاكتفاء ببعض الطعام إلى الإيثار بالباقي منه فقال طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الثلاثة وطعام الثلاثة يكفي الأربعة فأحسن ما أكل المؤمن في ثلث بطنه وشرب في ثلث وترك للنفس ثلثا كما ذكره النبي ﷺ في حديث المقدام فإن كثرة الشرب تجلب النوم وتفسد الطعام ". اهـ

وقِيلَ لِسَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه: " **إِنَّ ابْنَكَ بَشِمَ[2] الْبَارِحَةَ، قَالَ: لَوْ مَاتَ مَا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ ".**

وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ رَأَى أَنَّهُ قَدْ تَسَبَّبَ فِي قَتْلِ نَفْسِهِ. **(الجوع لابن أبي الدنيا)**

---

١ - انظر مختار الصحاح ص: ٢٠.
٢- بَشِمَ: أي أكثر من الطعام حتى اتَّخم.

- ***وفي رواية:*** " إن ابنك لم ينم الليلة، قال: أبشمًا[1]؟ قيل: بشمًا، قال: لو مات لم أُصلِّ عليه ".

(أخرجه الإمام أحمد في الزهد)

- ***وَفي رواية:*** " أَنَّهُ قِيلَ لسَمُرَةَ بن جندب ﷺ: أَكَلَ ابْنُك طَعَامًا كَادَ يَقْتُلُهُ، قَالَ:" لَوْ مَاتَ مَا صَلَّيْت عَلَيْهِ".

(الورع للإمام أحمد، ووكيع في الزهد، انظر النهاية في غريب الأثر:١/ ٣٣٨)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: " كأنه يقولُ: قتلتَ نفسكَ بكثرةِ الأكلِ، وهذا من جنسِ هَجرِ المظهرين للكبائرِ حتى يتوبُوا، فإذا كان في ذلكَ مثلُ هذه المصلحةِ الرَّاجحةِ كان ذلك حَسَنًا ".

(مجموع الفتاوى:٢٤/ ٢٨٦)

عن نافع مولى ابن عمر-رضي الله عنهما- قال: " أَهْدَى رجل من العراق إلى ابن عمر جَوَارِشَ[2]، فقال: ما يُصنَع بهذا؟ قال: إذا كظَّكَ الطعامُ[3] أخَذْتَ منه، قال: والله ما شَبِعْتُ مُنذُ كذا وكذا، لا حاجة لي فيه".

قال المناوي-رحمه الله-: موضحًا خطورة الإسراف في الطعام:" وهو مذموم طبًا وشرعًا كيف، وهو يقرب الشيطان، ويهيج النفس إلى الطغيان، والجوع يضيق مجاريه، وقال ابن حجر: نيل المراد حض المؤمن على قلة الأكل إذا علم أن كثرة الأكل صفة الكافر، فإن نفس المؤمن تنفر من الاتصاف بصفة الكافر.

لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (سورة محمد:١٢).

- **وقد ذكر النَّبِيُّ ﷺ أن من علامات الساعة ظهور السمنة في الناس:**

وهذا نتيجة الترف وكثرة الطعام والشراب وتنوعه.

- ***فقد أخرج البخاري ومسلم عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ:*** " خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ ثُمَّ إِنَّ بَعْدَهُمْ قَوْمًا يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ، وَيَخُوْنُوْنَ وَلَا يُؤْتَمَنُوْنَ، وَيَنْذِرُوْنَ وَلَا يُوْفُوْنَ، وَيَظْهَرُ فِيْهِمُ السِّمَنُ ".

ففي آخر الزمان يظهر أناس من أوصافهم أنهم يشهدون ولا يستشهدون، وهذان الوصفان من التساهل بالشهادة على الآخرين بغير علم ولا طلب، وكثرة النذر مع عدم الوفاء به، وهذا إن دلَّ فإنما يدل على رقة في الدين، وضعف في الإيمان، أما بالنسبة لكثرة السِّمَن الذي يظهر في آخر الزمان، فلعله بسبب انتشار الترف وكثرة وتنوع الطعام والشراب[4]، وقلة حركة الناس بسبب التقدم العلمي، وبسبب الأجهزة الحديثة التي تخدم الإنسان في حياته المعيشية، وقد ذكرت الإحصاءات أن سُدس سكان العالم يعانون من زيادة الوزن.

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " إِنَّه لَيَأْتي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ، وقالَ: اقْرَؤُوا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف: ١٠٥)

١- البَشَم: التُّخَمة عن الدَّسَم. ورجل بَشِمٌ بالكسر.

٢- الجوِرش: دواء يركب ليهضم الطعم، ويفتق الشهوة.

٣- كظَّك: كظه الطعام والشراب: إذا ملأ جوفه، ووجد منه ثقلا.

٤- والنبي ﷺ نهى عن الإسراف في الطعام والشراب فقد أخرج الترمذي من حديث أبي كريمة الْمِقْدَامَ بن معد يكرب ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكَلاتٌ يُقِمْنَ صُلبه، فَإِنْ كَان لا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لطعَامِه، وَثُلُثٌ لشرابِه، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ". أكلات: أي لُقم.

فينبغي عدم الإسراف في الطعام والشراب، وهذا فيه من الفوائد الكثيرة ومنها:

صفاء القلب ورقته، كسر الشهوة للنفس وحفظ الجوارح، صحة البدن، التفرغ للعبادة وقهر الشيطان، تذكر حال الفقراء والمساكين، شكر النعمة.

- ***قال وهب بن منبه-رحمه الله-:*** " ليس من بني آدمَ أحدٌ أحبَّ إلى شيطانِه من النؤوم الأكول ".
- ***وقال المروزي للإمام أحمد-رحمه الله-:*** " يجد الرجل رقة من قلبه وهو يشبع؟ قال:" ما أرى ذلك ".
- ***وقال إبراهيم بن أدهم-رحمه الله-:*** " من ضبط بطنه ضبط دينه ".
- ***وقال الفضيل بن عياض-رحمه الله-:***"خصلتان يقسو بهما القلب: كثرة الطعام، وكثرة الكلام ".
- ***وقال عمرو بن قيس-رحمه الله-:*** " إياكم والبطنةَ؛ فإنها تقسِّي القلب ".

(جامع العلوم والحكم لابن رجب:٢/ ٤٦٩)

- ***وقال الحسن البصري-رحمه الله-:*** " لا تسكن الحكمة معدةً ملأى ". **(المصدر السابق)**
- ***وقال أبو عمران الجوني-رحمه الله-:*** " من أحب أن ينور الله له قلبه، فليُقِلَّ طعامَه ".

(المصدر السابق:٢/ ٤٧٢)

- ***وقال الجنيد-رحمه الله-:*** " يجعل أحدكم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة ".
- ***وقال الشافعي-رحمه الله-:*** " البطنة تذهب الفطنة ".
- ***وقال بعض العلماء:*** " إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة ".

١١- يا باغي الشر: أقصر عن الغيبة والنميمة والبهتان وزلات اللسان:

يقول جابر ﷺ كما في "مصنف ابن أبي شيبة": **" إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمأثم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك وفطرك سواء".**

ويقول زين العابدين-رحمه الله-:"حق الصوم أن تعلم أنه حجاب ضربه الله على لسانك وسمعك وبصرك وفرجك وبطنك، ليسترك من النار" وهكذا جاء في الحديث: **"الصوم جُنَّة من النار".** **(رسالة الحقوق ص:١٠٧)**

ويقول ابن الجوزي-رحمه الله- كما في" بستان الواعظين ص: ٣٠٠: " ما من جارحة في بدن الإنسان إلا ويلزمها الصوم في رمضان وغير رمضان، فصوم اللسان: ترك الكلام إلا في ذكر الله تعالى، وصوم السمع: ترك الإصغاء إلى الباطل وإلى ما لا يحل سماعه، وصيام العينين: ترك النظر والغض عن محارم الله تعالى". اهـ

وإذا نظرت إلى كلام ابن الجوزي؛ علمت أن لكل جارحة عليها صيام، وصيامها أن تكفَّ عن العصيان، فاللسان يصوم عن الغيبة والنميمة والكذب والبهتان، والفم يصوم عن الحرام وشرب الدخان، والأذن تصوم عن سماع ما يغضب الرحمن، والعين تصوم عن النظر إلى النسوان، واليد تصوم عن أخذ الرشوة والسرقة والبطش والطغيان، والبطن تصوم عن أكل الحرام، والقلب يصوم عن الكراهية والبغضاء والشحناء والحسد والخصام

ومَن يجهل حقيقة هذا الصيام فله حظ ونصيب من كلام الحبيب ﷺ:" رُبَّ صائمٍ ليس له مِن صِيامِه إلَّا الجُوعُ، ورُبَّ قائمٍ ليس من قيامه إلا السهر".

(رواه الإمام احمد وابن ماجه والنسائي عن أبي هريرة ﷺ وهو في صحيح الجامع: ٣٤٨٨)

وهذا لأنه صام عن الطعام والشراب وهو أهون الصيام، لكن لم تصم جوارحه عن الحرام، فتراه لا يمنعه صومه من إطلاق اللسان، والوقوع في الغيبة والنميمة والكذب والبهتان، ويطلق للأعين والآذان الحبل والعنان، لتقع في الذنوب والعصيان، **وصدق بعض الحكماء حيث قال: "كم من صائم مفطر، وكم من مفطر صائم ".**

قال الغزالي-رحمه الله- في الحديث السابق: " قيل: هو الذي يفطر على حرام، أو مَن يفطر على لحوم الناس بالغيبة، أو مَن لا يحفظ جوارحه عن الآثام ". اهـ

فينبغي على الصائم أن يمسك عن فضول الكلام والخوض في الباطل والمراء، والخصومة والكذب والنميمة والفحشاء والجفاء، واللعن والسخرية والاستهزاء. وإذا كان ينبغي يكون على الدوام، إلا أنه يتأكد عند الصيام، كما جاءت بذلك الأخبار عن الحبيب المختار ﷺ.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث[1] ولا يجهل[2]، وإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل: إني صائم. إني صائم".**

قال القرطبي-رحمه الله -: " لا يفهم من هذا أن غير الصوم يباح فيه ما ذكر، وإنما المراد أن المنع من ذلك يتأكد بالصوم ".

أحبتي في الله...

إن الصيام لم يشرع لتُحْرَم من الأكل والشراب ساعات النهار، ولكن المقصود أن نكسر شهوات النفس، ونمسك عنان اللسان عن تتبع العورات، والخوض بالباطل، ونحفظ الجوارح عن ارتكاب ما حرَّم الله.

١ ـ الرفث: الكلام الفاحش. كما قال الحافظ في "الفتح" (١٢٦/٤)
٢ ـ ولا يجهل: أي لا يفعل شيئًا من أفعال أهل الجهل، كالصياح والسفه... ونحو ذلك.

ومن أعظم أفات اللسان والتي تقدح في الصيام الغيبة والكذب:

أخرج الإمام أحمد عن أبي عبيدة بن الجراح ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **" الصيام جنة ما لم يَخْرِقها".** **قال الدارمي:** " يعنى بالغيبة".

وتقول حفصة بنت سيرين-رحمها الله-:" الصيام جنة ما لم يَخْرِقها صاحبها، وخرقها: الغيبة".

وقال أبو هريرة ﷺ كما جاء في شعب الإيمان للبيهقي: **" الغيبة تخرق الصيام، والاستغفار يرقعه، فمَن استطاع منكم أن لا يأتي بصوم مخرق فليفعل".**

وقال عبيدة السلماني-رحمه الله -: **" اتقوا المفطِرَين: الغيبة والكذب"**

وقال مجاهد-رحمه الله -: " مَن أحب أن يسلم له صومه؛ فليجتنب الغيبة والكذب".

وقال أيضًا : " خصلتان مَن حفظهما سلم له صومه: الغيبة والكذب ".

ومن أعظم أفات اللسان والتي تقدح في الصيام أيضاً: قول الزور:

فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" مَن لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعَمَلَ به، فليسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ في أنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وشَرَابَهُ ".**

وفي هذا الحَديثِ يُحَذِّرُ النَّبيُّ ﷺ مَن يَقتَصِرُ صِيامُه على الامتِناعِ عنِ الأكلِ والشُّربِ فقطْ، ولم يَترُكِ الكَذِبَ، والمَيلَ عنِ الحَقِّ، والعَمَلَ بالباطِلِ والتُّهمَةِ، فمَن يَفعَلُ ذلك لا يُريدُ اللهُ منه أنْ يَترُكَ الطَّعامَ والشَّرابَ، وليس مَعنى ذلك أنْ يُؤمَرَ الصَّائمُ الَّذي تَلبَّسَ بمَعصيةٍ أنْ يَترُكَ صِيامَه ويُفطِرَ، وإنَّما مَعناه التَّحذيرُ مِن قَولِ الزُّورِ أو العَمَلِ به، وتَعظيمُ التَّلبُّسِ بهذه المَعاصي حالَ الصَّومِ، حيثُ إنَّه يكونُ سَببًا في نُقصانِ أَجرِ عِبادَةٍ مِن أفضَلِ العِباداتِ.

قال الحافظ ابن حجر-رحمه الله- في" فتح الباري:٤/١١٧"عند شرحه لهذا الحديث: " قال ابن العربي مقتضى هذا الحديث أن من فعل ما ذُكر لا يثاب على صيامه، ومعناه: أن ثواب الصيام لا يقوم في الموازنة بإثم الزور وما ذكر معه ". اهـ

قال أحدهم:

إذا لم يكن في السمع مني تَصَوُّنٌ وفى بصري غضُ، وفى منطقي صمتُ

فحظي إذًا من صومي الجوعُ والظمأُ وإن قلتُ إني صمت يومًا فما صمت

فكيف يزعم الصيام مَن هو يكذب ويغتاب، ويكثر الشتم والسباب، وقد نسى يوم الحساب؟! كيف يصوم من شهد الزور، ولم يكف عن المسلمين الشرور؟!

١٢- يا باغي الشر: أقصر عن النظر إلى الحرام:

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور: ٣٠-٣١)

وغض البصر معناه: الخفض وإطباق الجفن على العين بحيث يمنع الرؤية، وقد يكون بمجرد صرف البصر عن المنهي عنه، وهذا هو صيام العين.

أخرج الإمام مسلم عن جرير بن عبد الله ﷺ قال: "سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة، فقال: اصرف بصرك ".

لكن مَن خالف وأطلق العنان لبصره فيما حرَّم الله؛ فقد وقع بعينه في الزنا،

كما أخبر الحبيب النبي ﷺ فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: " كُتِبَ على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر..."**الحديث**

بل وستشهد عليه عينه يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (فصلت: ٢٠)

فعلى الإنسان أن يتقي الله في هذه الجوارح، والتي ستكون خصمه يوم القيامة، وسيُسألُ عنها بين يدي ربِّ العالمين، **قال تعالى:** ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦)

واعلم أخي الحبيب... أن البصر نعمة من الله تعالى فلا تعصِ الله بنعَمِهِ

يقول ابن الجوزي – رحمه الله –: " إنما بصرك يا أخي نعمة فلا تعصِ الله بنعَمِهِ".

وصدق أبو الأعلى المودودي –رحمه الله– قال: " مَن الذي يكابر في أن كل ما قد حصل في الدنيا إلى هذا اليوم ولا يزال يحدث فيها من الفحشاء والفجور باعثه الأول والأعظم هو فتنة النظر".

وصدق القائل حيث قال:

كـل الحـوادث مبـدؤها النظـر ومعظم النار من مستصغر الشرر

وإطلاق البصر فيما حرم الله له عواقب وخيمة منها:

فساد القلب وأسره، تشتيت النفس، فقدان حلاوة الإيمان، فقدان لذة العبادة والخشوع، نسيان العلم وضعف الذاكرة، الغفلة عن الآخرة، قسوة القلب، الوحشة، الظلمة، القلق، الاكتئاب،

ومن هنا تعلم لماذا كان النبي ﷺ يتعوَّذ من شر البصر فكان يقول: " اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي ومن شر بصري..." ***الحديث*** (أخرجه أبو داود والترمذي)

١٣- يا باغي الشر: أقصر عن الذنوب والمعاصي، فهي المانعة من المغفرة في شهر المغفرة:

لا يخفى على عاقل أن الذنوب والمعاصي شؤم على الأفراد والمجتمعات، وأن الذنوب سبب في زوال النعم، ونزول النقم، وتوالي المحن، وتداعي الفتن، وكلنا يعلم ما حل بالأمم السابقة بسبب الذنوب ومحاربة علام الغيوب.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (الأنعام:٦).

وقال جل جلاله: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ (غافر:٢١).

وكم أهلكت المعاصي من أمة، وكم دمرت من مجتمعات، وكم شردت من أفراد.

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ (سورة الأنبياء:١١)

فالمعاصي تهلك الحرث والنسل، وتنزع البركة، وتمنع الرزق، وما ظهرت المعاصي في ديار الا أقحطتها، ولا تمكنت من قلوب الا أعمتها، ولا فشت في أمة إلا أذلتها.

وصاحبُ المعصيةِ ملعون تلعنُه حتى البهائم، بخلاف صاحب الطاعة.

قال مجاهدٌ-رحمه الله- في تفسير قولِه تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة: ١٥٩) قال: إن البهائمَ تلعنُ عصاةَ بنى آدم إذا اشتدت السنةُ وأمسكَ المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم.

أما صاحب الطاعة فقال فيه ﷺ:" **إن اللهَ وملائكتَه وأهلَ السماوات والأرَضين حتى النملةَ في جحرها وحتى الحوتَ ليُصَلُّون على معلمِ الناس الخير** ". (رواه الترمذي وابن ماجه، وهو حديث صحيح)

وقال ﷺ:" **لما مُرَّ عليه بجنازة: مستريح ومستراح منه. قالوا: يا رسول الله ما المستريح والمستراح منه؟ فقال: العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**".

(رواه البخاري ومسلم)

أن المعاصي سببٌ لِهوانِ العبدِ على ربِّه، فترفع مهابته من قلوب الخلق فلا عِزَّةَ إلا في طاعةِ العزيزِ سبحانه. قال تعالى: ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (سورة الحج: ١٨)

قال الحسنُ البصري-رحمه الله- عن العصاة: " هانُوا عليه فَعَصَوه، ولو عزُّوا عليه لَعَصَمَهُم ".

وقال عبدُ الله بن المبارك:

رأيتُ الذنوبَ تميتُ القلوبَ وقد يورثُ الذُّلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوبِ حياةُ القلوبِ وخيرٌ لنفسِك عِصيانُها

- **فالمعاصي سبب لتحول العافية، والبعد عن رب البرية، واستجلاب سخط الرب، ودخول النار التي لا يموت الإنسان فيها ولا يحيى.**

قال الحسن بن صالح-رحمه الله-: " العملُ بالحسنة قوةٌ في البدن، ونورٌ في القلب، وضوءٌ في البصر، والعملُ بالسيئة وهنٌ في البدن، وظلمةٌ في القلب، وعمىً في البصر.

- **والذنوب والمعاصي سبب في سواد القلب:**

ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه من حديث حذيفة ﷺ أن النبي ﷺ قال: " **تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ** ".

قال إبراهيم بنُ أدهم-رحمه الله-: " إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسَعَةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمةً في القبر والقلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبُغْضَةً في قلوب الخلق ".

- **والذنوب والمعاصي تكسو القلب بالران:**

فقد أخرج الترمذي والنسائي في" الكبرى" وابن حبان من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

" **إنَّ العبدَ إذا أخطأَ خطيئةً نُكِتت في قلبِهِ نُكْتةٌ سوداءُ، فإذا هوَ نزعَ واستَغفرَ وتابَ سُقِلَ قلبُهُ، وإن عادَ زيدَ فيها حتَّى تعلوَ قلبَهُ، وَهوَ الرَّانُ الَّذي ذَكرَ اللَّه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** (المطففين: ١٤) ".

(صحيح الترمذي: ٣٣٣٤)

قال الحسن البصري-رحمه الله-في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ، قال:" هو الذنب بعد الذنب حتى يموت القلب ". (تفسير الطبري: ٢٤/ ٢٨٨).

فالعبد ما زال يرتكب الذنوب حتى تهون عليه، وتصغر في قلبه، فلا يستشعر خطرها، وإن تكاثرت الذنوب طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين.

- **الذنوب تحدث في الأرض الفساد:**

قال ابن القيم-رحمه الله-: " ومن آثار الذنوب والمعاصي إنها تحدث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه والهواء والزرع والثمار والمساكن، **قال تعالى:** ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١)، فالمراد بالفساد: النقص والشر والآلام التي يُحدثها الله في الأرض بمعاصي العباد، فكل ما أحدثوا ذنبا أحدث لهم عقوبة، **كما قال بعض السلف:** كل ما أحدَثْتُم ذنبًا أحدَث الله لكم من سلطانه عقوبة، والظاهر والله أعلم أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، **ويدل عليه قوله تعالى:** ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ (الروم:٤١) فهذا حالنا، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة ". اهـ

- **والذنوب تؤدي إلى ذهاب الحياء:**

فقد أخرج الإمام مسلم عن عمران بن الحصين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ..".

فمن قارف المعاصي ولازمها تولد في قلبه الاستئناس بها وقبولها، ولا يزال كذلك حتى يذهب عنه استقباحها ثم يبدأ بالمجاهرة بها وإعلانها.

قال النبي ﷺ: " كُلُّ أُمَّتِي مُعافًى إِلَّا المُجاهِرِينَ، وإنَّ مِنَ المُجاهَرَةِ أنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ باللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وقدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عليه، فَيَقُولَ: يا فُلانُ، عَمِلْتُ البارِحَةَ كَذا وكَذا، وقدْ باتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، ويُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عنْه ". (أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ)

- **والذنوب تزيل عن العبد النعم، وتحل به النقم:**

قال علي ﷺ:"ما نزل بلاء إلا بذنبٍ، ولا رُفع إلا بتوبة ".

كما أن الذنوب لها آثار سيئة على الفرد، فهي كذلك لها آثار سيئة على المجتمع:

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (الشورى: ٣٠).

وأخرج الإمام أحمدُ في الزُّهد وغيرُه عن جُبيرِ بنِ نُفيْر قال: لما فُتِحَتْ قبرص فُرِّقَ بين أهلِها فبكى بعضُهم إلى بعض، ورأيتُ أبا الدرداءِ ﷺ جالسًا وحدَه يبكي، فقلتُ: يا أبا الدرداء! ما يبكيكَ في يومٍ أعزَّ اللهُ فيه الإسلامَ وأهلَه؟ قال: ويحَك يا جبير؛ ما أهونَ الخلقِ على اللهِ إذا أضاعوا أمرَه. بينا هي أمةٌ قاهرةٌ ظاهرةٌ لهم الملكُ، تركوا أمرَ اللهِ فَصَارُوا إلى ما ترى ".

وصدق الله حيث قال: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٠)

- **والذنوب سبب لحِرْمانِ العبد من الطاعة:**

وهذا هو بيت القصيد، وكأن ما سبق مقدمة لهذا العنصر. فاحذر الذنوب في رمضان وفي غيره من الأيام فإنها تقطع الطريق عن الله.

قال ابن القيم-رحمه الله-: " حُبُّ الكتابِ وحبُّ ألحانِ الغناء في قلبِ عبدٍ ليس يجتمعان ".

وذلك أن الطاعة قُربةٌ إلى الملك الديان، فلا يجد عبدٌ لذة الطاعة إلا بابتعاده عن المعصية، ولذا قال سبحانه في المنافقين: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾

(التوبة: ٤٦)

قال الفضيل-رحمه الله-: إذا لم تقدر على قيام الليل، ولا صيام النهار، فاعلم أنك محروم، قد كبلتك الخطايا والذنوب ".

وقال شابٌ للحسن البصري-رحمه الله-: أعياني قيام الليل، فقال: قيدتك خطاياك.

وقال-رحمه الله- أيضًا: " إن الرجل ليذنب الذنب، فيحرم به قيام الليل ".

وقال سفيان الثوري-رحمه الله-: " حرمتُ قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته، قيل: وما ذاك الذنب؟ قال: رأيت رجلًا يبكي فقلت في نفسي:" هذا مراءٍ ".

يقول ابن الجوزي-رحمه الله-معقبًا على كلام سفيان الثوري: " فرُب شخص أطلق بصره فحرمه الله اعتبار بصيرته، أو أطلق لسانه فحُرم صفاء قلبه، أو آثر شبهة في مطعمه، فأظلم سره، وحُرِمَ قيام الليل وحلاوة المناجاة ". اهـ

فإياك والمعصية عموماً وفي رمضان خصوصاً، فهو شهر المغفرة والعتق من النار:

فكم في رمضان من حرمات تنتهك ومعاصي ترتكب، بل ويجاهر بها في هذا الشهر المبارك، فعجبًا لهؤلاء الذين يصومون عن الحلال من طعام وشراب وجماع، ثم يقعون ويفطرون على الحرام.

وصدق الحبيب النبي ﷺ حيث قال كما عند الطبراني في "الكبير": **" رب صائم ليس من صيامه إلا الجوع والعطش ".** (صحيح الجامع:٣٤٩٠)

فإلى الذين يُضيِّعون الأوقات في معصية رب الأرض والسماوات، **أذكرهم بحديث خير البريَّات:** **" رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذكرتُ عنده فلم يُصَلِّ عليَّ، ورَغِمَ أنفُ رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له، ورَغِمَ أنفُ رجل أدرك عنده أبَواهُ الكِبَر فلم يُدْخلاهُ الجنة ".** (أخرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ)

(صحيح الجامع: ٣٥١٠)

وفي رواية أخرى عند الطبراني من حديث جابر بن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" أتاني جبريل، فقال: يا محمدُ! مَن أدرك أحدَ والديهِ فمات فدخل النار فأبعدَه الله، قل: آمين، فقلتُ: آمين، قال: يا محمد! مَن أدرك شهرَ رمضانَ فماتَ ولم يُغفَر له فأُدخلَ النارَ فأبعده الله، قل: آمين، فقلتُ: آمين، قال: ومَن ذُكرتَ عنده فلم يُصلِّ عليك فماتَ فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلتُ: آمين ".**

(صحيح الترغيب والترهيب:٩٨٦) (صحيح الجامع: ٧٥)

رَغِمَ أنفُه في الطين والتراب مَن كان رصيده في رمضان من المسلسلات وبرامج المسابقات. فما حال هذا الرجل الذي دعا عليه سيد الملائكة -جبريل عليه السلام- وأمَّنَ عليه سيد البشر ﷺ.

فيا باغي الشر أقصر، فرمضان فرصة قد لا تتكرر لك، وموسم قد لا يُعوض، فالبدار البدار قبل فجأة الموت، وعندها يطلب الإنسان العود لإصلاح الزاد ليوم الميعاد، ولكن يُقال له: فات.

فالصالحون تنافسوا في الخيرات، طمعًا في الجنات، وأنت أيها المسكين ما زلت أسيرًا للشهوات، وعبدًا للَّذات، وقلوب المتقين إلى هذا الشهر تحنُّ، ومن ألم فراقه تئنُّ، وأنت ما زلت في غفلة.

آه من لوعة ضيف كريم بين قوم ساهين غافلين، أوّاه لو نعرف حق هذا الشهر وقدره؛ لتمنينا أن تكون السنة كلها رمضان، ولكنها الغفلة التي ملئت قلوب الساهين اللاهين الغافلين.

فيا عُبَّاد الشهوات والشبهات، يا عُبَّاد الملاهي والمنتديات، يا عُبَّاد الشاشات والفضائيات:

ما لكم لا ترجون لله وقارًا، ولا تعرفون لشهر رمضان حلالًا أو حرامًا؟!

فيا من أدركت رمضان وأنت ضارب عنه صفحًا بالنسيان، هل ضمنت لنفسك الفوز والغفران؟ أتراك اليوم تفيق من هذا الهوان؟ قبل أن يرحل شهر القرآن، والعتق من النيران، فلعله يكون بالنسبة لك آخر رمضان.

فيا ذا الذي ما كفاهُ الذنبُ في رَجـبٍ ... حتى عَصَى ربَّهُ في شهر شعبـانِ
لقـد أظَلَّكَ شهـرُ الصَّـومِ بَعْدَهُمَـا ... فلا تُصَيِّرْهُ أيْضًا شَهْـرَ عِصْيـانِ
واتْـلُ الْقُـرآنَ وَسَبِّحْ فيـه مجتَهِـدًا ... فَإنـه شهـرُ تسبيـحٍ وقُـرْآنِ
كمْ كنتَ تعرِف مِمِّـنْ صَام في سَلَفٍ ... مِـنْ بين أهـلٍ وجِيـرانٍ وإخْـوَانِ
أفْنَاهُمُ المـوتُ واسْتَبْقَـاكَ بَعْـدهمُ ... حَيًّا فَمَا أقْرَبَ القاصِي مـن الدانِي

فاصدق مع نفسك ما دام في العمر فسحة، قبل أن تندم حيث لا ينفع الندم، وعليك بما يفيدك في الميعاد، وما تنجو به يوم التناد، واجعل شهر رمضان شهر طاعات وقربات، ولا تجعله شهر معصية وانتهاك حرمات، فستندم أيها المفرط إن رحلت بغير زاد، وتشقى إذ يناديك المناد، فلا تفرح بمال تقتنيه، فإنك في معكوس المراد، وتب بما جنيت وأنت حي، وكن متنبهًا من ذا الرقاد، أيسرك أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد؟

فَبَادِرْ إلى الخَيْرَاتِ قَبْـلَ فَوَاتِـهَا ... وَخَالِفْ مُرَادَ النَّفْسِ قَبْلَ مَمَاتِهَا
سَتَبْكِيْ نُفُوسٌ في القِيَامَةِ حَسْرَةً ... عَلى فَـوْتِ أَوْقَاتٍ زَمَـانَ حَيَاتِهَا
فَلاَ تَغْتَرِرْ بِالعِزِّ وَالمَالِ والمُنَى ... فَكَم قَـدْ بُلِيْنَا بانْقِـلاَبِ صِفَاتِـهَا

يا أيها العاصي... كيف تعصيه وأنت فوق أرضه التي خلق، وتحت سمائه التي فتق؟! تتنفس هواءه، وتأكل وتشرب من نعمِهِ وآلائه! وتعصيه بأعضائك التي أعطاها لك وحرمها غيرك، أفٍّ لك! هل تستطيع أن تتحمل خيانة مَن ربَّيته وأنعمت عليه؟! وأنت لم تخلقه! يا لها من نعمة عليك عظيمة! أنْ أمهلك اللهُ حتى هذه اللحظة لتتوب، ولم يأمر الله أن تخطفك ملائكة الموت وأنت على عصيانك، فتُلقى في النار. فاحمد الله ﷻ أن منَّ عليك بنعمة الحياة حتى أدركت هذا الزمان، ولم يقبضك على العصيان.

فالبدار البدار قبل مجيء هاذم اللذات، والحذار من يوم الندم والحسرات، عندما يقول المذنب: رب ارجعون، فيُقال له: فات.

إذا رمضانُ أتى مقبلًا فأقبِل فبالخير يُستقبلُ
لعلَّك تُخطِئــهُ قابــلًا وتأتي بعُذرٍ فلا يُقبَلُ

فيا من أسرف على نفسه وأتبعها الهوى، وجانب الجادة في أيامه وغوى، ها هو شهر رمضان قد أقبل، فناجِ فيه ربك، وأسل دمعك، وطهِّر قلبك، وجدد فيه إيمانك، وامح به عصيانك، فهو والله نعمة عظيمة، ومنَّة كريمة، وفرصة وغنيمة، فتب إلى الله توبة نصوحًا، واجتهد في هذا الشهر بقدر ما تستطيع حتى تخرج منه وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك، لكن إن أبيت إلا العصيان، والغفلة في رمضان، فتوضأ وكبِّر على قلبك أربع تكبيرات فإنه لا قلب لك. فاللهم أحي قلوبنا، وثبتنا على الإيمان يا رحيم يا رحمن.

فيا غافلا عن شهر رمضان!... اعرف زمانك، **يا كثير الحديث فيما يؤذي!** احفظ لسانك، **يا متلوثًا بأوحال الفضائيات والمسلسلات!** اغسل بالتوبة ما شانك، **يا مضيع الزمان فيما ينقص الإيمان! يا معرضًا عن الأرباح ومتعرضًا للخسران! أين أنت من قول الرحمن:** ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد:٢١)

أين أنت من قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣،١٣٤)

أيها العاصي... ها هي التوبة في رمضان معروضة، ومواسم الطاعات مشهورة، فلئن أتعبتك المعاصي، وأثقلتك الذنوب، فاعلم أن لك ربًا يريد منك أن تتوب: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء:٢٧)

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١١٠)

وفي الحديث القدسي: **" يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني؛ غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة ".**

(رواه الترمذي)

فمن تحرى الخير وجده، ومن بحث عن الطريق لقيه، ومن أقبل على الله؛ أقبل الله عليه فأعانه وسدده، فهيا إلى التوبة، هيا إلى الأوبة، **واستجب لنداء رب العالمين حيث قال في كتابه الكريم:** ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (الحديد:١٦) هيا أعلنها، وقل: بلى. يا رب قد آن، بلى. يا رب قد آن.

١٤- يا باغي الشر: أقصر عن سماع الأغاني والألحان في رمضان وفي غيره من سائر الأيام:

من المعلوم أن سماع الأغاني والألحان حرام، ويزداد الأمر قبحًا وسوءًا خصوصًا عند سماعها في رمضان، فهو شهر القرآن، ولكن جعله البعض لسماع مزامير الشيطان وهذا حرام.

أدلة تحريم الغناء من القرآن الكريم:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (لقمان: ٦، ٧)

- ***وقد أخرج الحاكم وصححه البيهقي عن ابن مسعود ﷺ قال:*** " **والله الذي لا إله غيره هو الغناء، وظل يرددها ثلاثًا** ".

قال ابن كثير-رحمه الله-: " كذا قال ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وجابر، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد ".

ثم قال ابن كثير في هذه الآية: " لما ذكر الله تعالى السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه، عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله وأقبلوا على سماع المزامير والغناء والألحان وآلات الطرب ". اهـ.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الإسراء: ٦٤)

ومعنى الآية: أن الله تعالى يقول للشيطان: استفزز الساهين واللاهين بصوتك الذي هو الطرب والغناء وما صاحبه من موسيقى... وغيرها من المعازف، وأُزَّهم أزًا وحركهم إلى المعصية ومرّنهم على الفاحشة والفجور.

فكل من سمع الغناء فليعلم أن الشيطان قد استحوذ عليه فصار من حزبه، وقد دعاه الشيطان فقال: لبيك.

وقال القرطبي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: " إن هذه الآية دليل على تحريم الغناء والمزامير واللهو، فما كان من صوت الشيطان أو فعله فيجب التنزه عنه ".

ثم أيَّد ما استنبطه بالحديث الذي رواه الإمام أحمد عن نافع مولى ابن عمر-رضي الله عنهما- قال:

" كنت أسير مع ابن عمر، فلما سمع زمارة راع فوضع إصبعيه في أذنيه، وعدل راحلته إلى الطريق، وهو يقول: يا نافع. أتسمع؟ فأقول: نعم. فيمضي... حتى قلت: لا. فرفع يده وعدل راحلته إلى الطريق، وقال: رأيت الرسول ﷺ سمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه كما فعلت". - **وفي رواية:" فصنع مثل هذا ".**

قال القرطبي-رحمه الله-: " وهذا في غناء هذا الزمان عندما كان يخرج عن حد الاعتدال، فكيف بغناء زماننا؟؟".

يا الله! القرطبي يقول ذلك: وهو في القرن السادس من الهجرة، فكيف لو رأيت زماننا يا قرطبي؟!

وأما الأدلة من السنة فكثيرة ونكتفي منها:

بما رواه البخاري عن أبي مالك الأشعري ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **" ليكونن من أُمتي أقوامٌ يستحلُّون الحر والحرير والخمر والمعازف".**

ومعنى الحديث: أنه سوف يأتي قوم يستحلون المحرمات، منها فروج النساء ولبس الحرير (أي للرجال)، وشرب الخمر، ويستمعون المعازف والغناء، ويقولون: هذا مباح فيعزفون ويطبلون ويرقصون ويغنون، وإذا جابهتهم وأنكرت عليهم، قالوا: هذا مباح وقد صحت نبوءته ﷺ بذلك.

ويستفاد من الحديث تحريم الغناء وذلك من وجوه: الأول: قوله:" يستحلون" إذ الأصل هو الحرمة، ولكنهم يستحلون ما حرم الله. **الثاني:** اقترانه بالزنا والخمر ولبس الحرير، وكل هذه الأمور محرمة.

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه واللفظ له من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال:

" يشربُ ناسٌ من أمتي الخمرَ، يسمُّونها بغيرِ اسمِها، يُضرَبُ على رؤوسِهم بالمعازفِ والقَيْناتِ، يَخسِفُ اللهُ بهم الأرضَ، ويجعلُ اللهُ منهم القِرَدَةَ والخنازيرَ ". (صحيح الترغيب والترهيب: ٢٣٧٨)

وأخرج الترمذي عن عمران بن الحصين ﷺ عن النبي ﷺ قال: **" في هذه الأمةِ خَسْفٌ، ومَسْخٌ، وقَذْفٌ، فقال رجلٌ مِن المسلمين: يا رسولَ اللهِ! ومتى ذلك؟ قال: إذا ظَهَرَتْ القِيانُ والمعازفُ، وشُرِبَتْ الخمورُ".**

- *وفي رواية:*" سيكونُ في آخرِ الزمانِ خَسْفٌ، وقذفٌ، ومَسْخٌ، إذا ظَهَرَتِ المعازِفُ والقَيْناتُ، واسْتُحِلَّتِ الخمْرُ ". (صحيح الجامع: ٣٦٦٥)

قال ابن عباس وعبد الله بن مسعود-رضي الله عنهم-: **" إن الغناء يُنبت النفاق في القلب كما يُنبت الماء البقل ".**

وكان الإمام مالك-رحمه الله- يقول عن الغناء: " إنما يفعله عندنا الفُساق ".

ولذا كان القانون المصري سنة ١٩٣٨ ميلادية يرد شهادة المغني والممثل.

وكان الضحاك-رحمه الله- يقول: " الغناء مفسدة للقلب ومسخطة للرب ".

وكان الفضيل بن عياض-رحمه الله- يقول: " الغناء رقية الزنا ".

وقال ابن القيم-رحمه الله-: " ولا ينبغي لمن شم رائحة العلم أن يتوقف في تحريم الغناء وآلات الملاهي فأقل ما يقال أنها شعار الفساق وشاربي الخمور". اهـ.

١٥- يا باغي الشر: أقصر عن مشاهدة التلفاز، والانشغال بالمسابقات والفوازير والمسلسلات:

فيقضي البعض منا معظم ساعات الليل في مشاهدة الأفلام والمسابقات والمباريات، والفوازير والمسلسلات، الصالحون يقلبون صفحات القرآن ويقلب باغي الشر قنوات التلفاز! ويقلب نظره فيما حرم اللهَ!

والسؤال: أين هو من قيام الليل؟! **وأين هو من قول الحبيب النبي** ﷺ:" **مَن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه** ".

اعلموا أحبتي في اللّه... إن التلفاز فتنة دخلت كل بيت وعكف الناس عليه، فاستشرى الفساد في جسد الأمة حتى وصل إلى النخاع، وما نراه الآن من اغتصاب، وخروج النساء عاريات، وعلاقات مُحرمة، وانتشار الرشوة، والغناء، والخنا، والفجور... وغير ذلك كان سببه (المُفسديون) الذي أفسد على الناس دينهم لما يشاهدونه من مناظر داعرة لنساء خليعات عارية، ورجال يتكلمون بكلام العشق والمجون، وكذا مزامير الشيطان... وغير ذلك من ألوان المعاصي.

لكن ما حُكم هذا الجهاز؟؟

جاء في فتاوى اللجنة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية: أن الجلوس أمام التليفزيون جائز إن كان المسموع غير مُحرم، كتلاوة القرآن والمحاضرات الدينية، والنشرات التجارية، والأخبار السياسية، ويكون ممنوعًا إن كان المسموع محرمًا كالأغنيات الخليعة، والكلمات الماجنة، وأصوات المغنيات، ولو بأغنيات غير ماجنة، وأغاني الرجال الذين يتكسرون في غنائهم أو يتخنثون فيها.

وبالجملة: فالجلوس للاستماع تابعان لحكم المسموع حلًالا كان أو حرامًا، وقد يمنع ما كان جائزًا من السماع والجلوس من أجل الإفراط فيه وتضييعه الوقت، فقد يكون الإنسان في أمسِّ الحاجة إلى شغله بما يعود عليه بالنفع وعلى أسرته وعلى الأمة بالنفع العميم، والخير الكثير، والأحوط في ذلك تركه؛ لأنه قد يكون وسيلة إلى سماع ورؤية ما يحرم سماعه ورؤيته.

ويقول الدكتور عبد الله ناصح علوان-رحمه الله- في رسالته "حكم الإسلام في وسائل الإعلام": " ما دام التليفزيون اليوم يرمي في أكثر برامجه إلى إهدار الشرف، ويوجه نحو الفساد والإباحية، ويشجع على السفور والاختلاط، فإن اقتنائه، والاستماع إلى برامجه، والنظر إلى مشاهده يعد من أكبر الحرام، وأعظم الإثم، **وإليكم الدليل على ذلك:**

١- أجمع الفقهاء والأئمة المجتهدون في كل زمان ومكان أن مقاصد التشريع الإسلامي خمسة هم: حفظ الدين، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ النفس، وحفظ المال. **وقالوا:** إن كل ما جاء في الشريعة من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وقواعد أصولية تهدف إلى حفظ هذه الكليات الخمس، وباعتبار أن أكثر برامج

التليفزيون الحالية من أغاني ماجنة، وتمثيليات خليعة، ودعايات مثيرة، وأفلام فاسدة تستهدف إهدار الشرف، وضياع العِرض، وشيوع الزنا والفاحشة، فإنه يحرم النظر إليها والاستماع لها؛ للحفاظ على النسب والعرض.

٢- ***أخرج الإمام مالك والدارقطني عن أبى سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:*** " **لا ضرر ولا ضرار**".

فهذا الحديث الشريف يعد قاعدة شرعية من أهم القواعد التي قعدها الفقهاء، واستنبطها علماء الأصول؛ لأن عليها مدار الإسلام في أوامره ونواهيه؛ ولأنها تهدف إلى تحريم كل ما يضر بالفرد والمجتمع والأخلاق بلفظ بليغ موجز، وباعتبار أن التليفزيون في برامجه الحالية يوجه إلي ميوعة وانحلال، ويثير في المجتمع الكوامن الغريزية والشهوة، فإنه يحرم على المسلم أن يشتريه ويدخله بيته؛ حفاظًا على عقيدة الأسرة وأخلاقها؛ وقطعًا لدابر الأضرار التي تنجم عنه وتطبيقًا لقاعدة:" **لا ضرر ولا ضرار**".

٣- **من القواعد المقررة في الشريعة الإسلامية قاعدة: سد الذرائع**، ومعناها: تحريم المباح لكونه يؤدي إلى حرام.

فباعتبار أن النظر إلى برامجه الحالية يؤدي إلى الفساد والتحلل، صار اقتناؤه أو استعماله محرمًا لكونه يؤول إلى أسوأ المفاسد وأحط الأخلاق.

٤- **إن أكثر البرامج الترفيهية التي تعرض على شاشة التليفزيون مصحوبة بالمعازف والغناء الخليع والرقص والمجون:** وباعتبار أن الاستماع إلى الموسيقى والمعازف محرم، وباعتبار أن النظر إلى الراقصات والنساء المتبرجات بصفة خاصة، يترتب عليه إثارة الغرائز، وهياج الشهوات، كان اقتناؤه حرامًا، وبالتالي كان النظر إلى هذه البرامج محرمًا أيضًا، لما لها من خطر في تقويض دعائم التربية والأخلاق،

هذه عدا ما للتليفزيون من:

- **أضرار صحية:** كإضعاف البصر، وتعويد من هو مُغرم به على السهر.
- **وأضرار نفسية:** كتعلق القلب بممثلة حسناء شغلت لُبه وتفكيره.
- **وأضرار تعليمية:** كإشغال الطلاب عن واجباتهم المدرسية وتكوينهم الثقافي.
- **وأضرار فكرية:** كإضعاف الذاكرة وملكة التفكير، والفهم والاستيعاب.
- **وأضرار مالية:** كإتلاف المال في شرائه، والأسرة في أمسِّ الحاجة إلى تأمين حاجياتها الضرورية.
- **وأضرار اجتماعية:** ما يترتب من الاجتماع عليه من علاقات مشبوهة، وحوادث خُلُقِية، ومفاسد عائلية، يعاني منها من يقضي أكثر وقته في النظر إليه والسهر عليه.

كلمة لمن ينشرون الفساد عن طريق الفضائيات ووسائل الإعلام:

إن أصحاب الفضائيات والإذاعات في زماننا معظمهم يستعد لرمضان قبل مجيئه بستة أشهر، يحشد كل فيلم خليع، وكل مسلسل وضيع، وكل غناء ماجن للعرض على المسلمين في أيام وليالي رمضان؛ لأن رمضان كريم كما يعلنون، ولسان حالهم يقول: شهر رمضان الذي أنزلت فيه الفوازير والأفلام والمسلسلات. ولأن مردة الشياطين من الجن تصفد وتقل في شهر رمضان، عز على إخوانهم من شياطين الإنس الذين يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، عزَّ عليهم أن يفيء الناس إلى ربهم، فشغلوهم بما هو جديد في عالم الأفلام والمسلسلات.

إن رمضان شهر البركات والرحمات، وهل يُتصوَّر أن تتنزل الرحمات على مشاهدي الفوازير والأفلام والمسلسلات، التاركين للعبادات.

فيا أيها المفسدون... أقصروا عن نشر الفساد، وإشاعة الفواحش، **قال تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (النور:١٩)

أيها الناس... فرّوا من المفسدين فراركم من الأسد، إن المفسدين هم قُطَّاع الطريق إلى الله، **إنهم مَن قال الله فيهم:** ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة:٢٢١)

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف:٢٨)

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٧، ٢٨)

فالمفسدون يدعونك لزنا العين وزنا الأذن، فلا تطاوعهم، **وتذكر قول الحق:** ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ (الإسراء:٣٦)

قال جابر ﷺ: " إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمآثم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقارٌ وسكينةٌ يوم صومك، ولا تجعل يوم فطرك ويوم صومك سواء ".

كن أيها الصائم كما وصف رب العالمين عباده الصالحين، **فقال:** ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان:٧٢)، **وقال:** ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون:٣)

ولقد بيَّن الله الحكمة من تشريع الصيام في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣)

١٦- يا باغي الشر: أقصر عن تضييع الأوقات في المكالمات الهاتفية غير المفيدة:

وهذا فيه من المفاسد، ومنها: ضياع للمال، وضياع للأوقات، وربما الوقوع في المحظورات كالغيبة والنميمة.

١- فأما ضياع المال:

فذلك نتيجة كثرة المكالمات، ومما لا شك فيه أن الإنسان سيسأل يوم القيامة عن ماله: من أين أخذه وفيما أنفقه، وهل أخذه من حِلٍّ ووضعه في حق.

فقد أخرج الترمذي من حديث أبي برزة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة؛ حتى يُسْأل عن أربع خصال: عن عُمُره فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه؟ وعن علمه ماذا عَمِل فيه؟".**

قال بعض العلماء: " مصيبتان لم يسمع بهما الأولون والآخرون، **في مال العبد:** يُؤخذ منه كله ويُسأل عنه كله ".

والخطر يكون عظيمًا عندما يُدفع هذا المال بسبب أحاديث الغيبة والنميمة، أو كلام لا ينفع ولا يضر – كما سيأتي في المحظور الثالث.

٢- وأما ضياع الأوقات:

فلو اعتبرنا دفع المال في المكالمات التي فيها شر أو ليس فيها خير من السفه، فأشد من ذلك إتلاف الأوقات والأنفاس، ثرثرة لا تجدي ولا تعود بالنفع، **قال تعالى:** ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء:١١٤)

– ***وكان عطاء بن أبي رباح يقول:*** " إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ أو أمر بالمعروف أو نهي عن منكر أو تنطق بحاجتك في معيشتك التي لابد منها. أتتكرون أن عليكم حافظين كرامًا كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. أما يستحي أحدكم إذا نُشرت صحيفته التي ملأها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس في أمر دينه ولا دنياه؟ ".

– ***وقال الحسن البصري–رحمه الله–:*** " يا بن آدم بُسِطت لك صحيفة وَوُكِّلَ بك ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر ".

– ***وقال عمرو بن العاص ﷺ:*** " **الكلام كالدواء إن أقللت منه نفع وإن أكثرت منه قتل** ".

ومن الحِكم والأقوال المأثورة:

- دليل عقل المرء قوله، ودليل أصله فعله.
- إذا تم العقل نقص الكلام.
- من كَثُرَ كلامُه كَثُرَ مَلامُهُ.
- بكثرة الصمت تكون الهيبة.
- سلامة الإنسان في حفظ اللسان.

٣- وأما الوقوع في المحظورات:

وذلك لأن الكلام المباح يجرُّ في الغالب إلى محظور، كالغيبة والنميمة، وهذا ما يحدث في الغالب، وإذا جاء النهي عن تضييع الأوقات، فكيف إذا كانت إضاعتها في أحاديث الغيبة والنميمة، ***وصدق الحبيب النبي ﷺ حيث قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه:*** **" وهل يكبُّ الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟".**

ولذلك كان بعضهم يقول: يا لسان قل خيرًا تغنم، أو أمسك عن شر تسلم، من قبل أن تندم.

فعندما نتكلم لا بد أن نضع نُصب أعيننا **قوله تعالى:** ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨)

ألا فليتق الله هؤلاء الثرثارون من الرجال والنساء الذين يقضون الساعات في أحاديث تليفونية لا طائل تحتها ولا فائدة من ورائها، فإن الله كَرِهَ لنا قِيلَ وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.

١٧- يا باغي الشر: أقصر عن الغضب وهيجان الأعصاب بحجة أنك صائم:

فترى أثناء الصيام تكثر المشاجرات والسبُّ واللعن ونفاذ الصبر وعدم تحمل الغير، والصيام بريء من هذا كله براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام؛ لأن الصيام تربية وتهذيب.

فقد جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **" الصيام جُنَّة فإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفث[١] ولا يصخب[٢]، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم".**

يقول الحافظ-رحمه الله- في "الفتح": ويستفاد من الحديثين: أن هذه المعاصي يزيد قبحها في الصيام على غيرها، وأنها تخدش في سلامة الصيام، بل ربما اقتضت عدم الثواب عليه ".

وفي رواية أخرى عند النسائي من حديث عائشة -رضي الله عنها- عن النبي ﷺ قال: **" الصيام جُنَّةٌ من النار، فمَن أصبح صائمًا فلا يجهل يومئذ، وإن امرؤ جهل عليه فلا يشتمه ولا يسبّه، وليقل: إني صائم".**

١- الرفث: كما مر بنا هو الكلام الفاحش، (قاله الحافظ ابن حجر في الفتح: ١٢٦/٤).
٢- الصخب: الخصام والصياح، والسخب يقال بالسين والصاد. (فتح الباري: ١١٨/٤)

وعند البخاري في كتاب "الصيام" – باب حفظ اللسان للصائم وفضل الصيام– من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" قال الله: كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّةٌ، وإن كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحدٌ أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم ".**

قال القرطبي–رحمه الله–: " لا يفهم من هذا أن غير الصوم يباح فيه ما ذكر، وإنما المراد أن المنع من ذلك يتأكد بالصوم ".

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" ليس الصيام من الطعام والشراب، إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سَابَّكَ أحدٌ، أو جهل عليك، فقل: إني صائم إني صائم ".** (صحيح الجامع:٥٣٧٦)

وقفة: يستحب أن يجهر بقوله: "**إني صائم**"، وذلك لفائدتين:

الأولى: ليعلم الشاتم أنه لم يقابله بالإساءة لا لعجزه ولكن لكونه صائم.

الثانية: ليذكر الشاتم أن الصائم لا يشتم أحدًا، ولعل هذا يكون رادعًا له عن الشتم فلا يشتم.

فالصائم لا يقابل الإساءة بالإساءة، بل يذكِّر السابَّ بأن الذي يمنعني من السب وسوء الأخلاق هو صيامي.

وأخرج الحاكم بسنده أن النبي ﷺ قال: **" مَن كان سهلًا هيِّنًا ليِّنًا، حرَّمه الله على النار".**

- **فعلى الصائم أن يتخير من الأخلاق أحسنها، ومن الكلام أطيبه، حتى يكون جار الرسول ﷺ في أعالي الجنة.**

فقد أخرج الترمذي من حديث علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" إنَّ في الجنَّةِ غُرفًا تُرَى ظُهورُها من بطونِها وبطونُها من ظُهورِها فقامَ أعرابيٌّ فقالَ: لمن هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ فقالَ: لمن أطابَ الكلامَ، وأطعمَ الطَّعامَ، وأدامَ الصِّيامَ، وصلَّى باللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ ".** (صحيح الترمذي: ١٩٨٤)

- **فهنيئًا لمَن أُعدَّت لهم هذه الغرف، وما أدراك ما الغرف.**

– *فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:* **" إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة، كما تراءون الكوكب في السماء ".**

– *وفي رواية عند البخاري ومسلم والترمذي واللفظ له من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:*
" أن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم ".

١٨ - يا باغي الشر: أقصر عن السهر بالليل في اللعب واللهو، والنوم طوال نهار رمضان:

فترى كثيرًا من المسلمين يسهرون بالليل، لكن ليس في قيام أو طاعة، إنما يجلسون أمام الشاشات أو يذهبون إلى الأسواق والملاهي، والخيام الرمضانية، والسهرات التليفزيونية، والماتشات الدورية، ثم ينامون قبيل الفجر فلا يصلونه، وربما ناموا إلى قبيل العصر وفاتهم أيضًا الظهر، وهذا أمر خطير.

أضف إلى هذا أنهم مخالفون لفطرة الله التي فطر الناس عليها، حيث جعل النهار معاشًا والليل لباسًا، **قال تعالى:** ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبأ:١٠، ١١)

أضف إلى هذا أنه مخالف لهدي النبي ﷺ فقد كان النبي ﷺ يكره الحديث بعد العشاء.

كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي برزة الأسلمي نضلة بن عبيد ﷺ قال عن النبي ﷺ: "... وكانَ يَسْتَحِبُّ أنْ يُؤَخِّرَ العِشاءَ -الَّتي تَدْعُونَها العَتَمَةَ - وكانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَها، والحَدِيثَ بَعْدَها[1]...".

- ***وعند الترمذي بلفظ:*** " كانَ النَّبيُّ ﷺ يكرَهُ النَّومَ قبلَ العِشاءِ، والحديثَ بعدَها ".(صحيح الترمذي: ١٦٨)

أضف إلى هذا أيضًا أنهم لا يشعرون بلذة الصيام أبدًا، ولا يجدون أثره عليهم، ولا يشعرون بالحكمة من مشروعيته، فإن من الحِكَمِ أن يشعر الغنيُّ بالجوع ليتذكر أخاه الفقير، ويذكر نعمة الله عليه بالطعام والشراب طيلة أيام العام، ثم يجيء عند هذه الأيام فقط فيشعر بقيمة هذه النعمة.

ومن الحِكَمِ كذلك اختبار إرادة الصائم، حيث يُمْنَع من شهوة الطعام والشراب والجِماع، فيترك هذا استجابة لله ولرسوله؛ فيكون أمامه الطعام والشراب والزوجة لكن يترك هذا كله لله طواعية.

أحبتي في الله... لابد من العزم الصادق، والهمة العالية على اغتنام رمضان بالأعمال الصالحة.

قال تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (محمد:٢١)

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ (التوبة:٤٦)، فعلينا أن نجد ونجتهد في هذا الشهر، فمَن أراد الراحة ترك الراحة، والمكارم منوطة بالمكاره، والخير لا يُنال إلا بحظ من المشقة، ولا يُعبر إليه إلا على جسر من التعب.

***قيل للربيع بن خثيم*-وكان مجتهدًا في العبادة -:** لو أرحت نفسك؟ قال: راحتها أريد ".

فنيل الدرر من قاع البحر لا يأتي إلا بعد معاناة الشدائد.

١- اللهم إلا إذا كان السهر في مدارسة علم أو قيام ليل، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" لا سمرَ إلَّا لِمُصَلٍّ، أوْ مُسافِرٍ ". (صحيح الجامع: ٧٤٩٩) (الصحيحة:٢٤٣٥). - وفي رواية:" لا سمرَ بعدَ الصَّلاةِ- يَعْني عشاءَ الآخِرةِ- إلَّا لأحدِ رجلينِ مصلٍّ أو مسافرٍ ".
وفي هذا الحديثِ يقولُ النَّبيُّ ﷺ:" لا سَمَرَ" وهو الحديثُ والسَّهَرُ ليلًا،" إلَّا لِمُصَلٍّ" يقومُ اللَّيلَ بالصَّلاةِ والنافِلَةِ؛ وذلك لأنَّه بالسَّمَرِ يتروَّحُ قليلًا ثم يُقبِلُ على صَلاتِه، "أو مُسافِرٍ" حيثُ يَسْمُرُ مع غَيْرِه، ويَسهَرُ لِيَطويَ المسافاتِ باللَّيلِ؛ وسببُ النَّهيِ عن السَّمرِ: أنَّه يُؤدِّي إلى السَّهرِ، ويُخافُ منه غَلَبةُ النَّومِ عن قِيامِ اللَّيلِ، أو الذِّكْرِ فيه، أو عن صَلاةِ الصُّبحِ في وقْتِها الجائزِ أو المختارِ أو الأفضَلِ، ولأنَّ السَّهَرَ في اللَّيلِ سببٌ للكَسَلِ في النَّهارِ عمَّا يتَوجَّهُ مِن حُقوقِ الدِّينِ، والطَّاعاتِ، ومَصالِحِ الدُّنْيا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (يونس: ٦٧)؛ وعلى هذا فلا ينبغي السَّمَرُ في اللَّيلِ إلَّا لفائدَةٍ، وَما لا بُدَّ منه مِنَ الحَوائجِ، كما في حَديثِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ ﷺ عندَ التِّرْمِذيِّ: "كان رسولُ اللهِ ﷺ يَسمُرُ مع أبي بَكْرٍ في الأمْرِ من أمْرِ المُسلِمينَ وأنا معهما"، وهكذا كلُّ ما كان فيه مصلحةٌ أو حاجةٌ داعيةٌ إليه، كمُدارسةِ العِلمِ، وحكاياتِ الصالحين، ومُحادثةِ الضَّيفِ، والعروسِ للتأنيسِ، ومُحادثةِ الرجلِ أهلَه وأولادَه للمُلاطفةِ والحاجةِ، والحديثِ في الإصلاحِ بين الناسِ، والشفاعةِ إليهم في خَيرٍ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المُنكَرِ، والإرشادِ إلى مصلحةٍ، ونحوِ ذلك.

إن رمضان هو مضمار سباق شعاره: قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣)

إن همم الرجال عند قمم الجبال، وهمم المتقين هو دخول جنَّة رب العالمين، والنظر إلى وجه الله الكريم، فليكن شعارك في رمضان: "**لا يسبقني إلى الله أحد**".

وليكن شعارك في رمضان: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (طه:٨٤)

وليكن شعارك في رمضان: " **ليرينَّ الله ما أصنع** ".

١٩ - يا باغي الشر: أقصر عن شرب الدخان والمخدرات:

أيها المدخن... انتهز هذه الفرصة العظيمة- فرصة دخول رمضان- للإقلاع عن هذا المرض اللعين وهو التدخين وشرب المخدرات، فلقد جاهدت نفسك وتركت التدخين في نهار رمضان، وهذا دليل على أنك تستطيع أن تتركه على الدوام، فجاهد نفسك، لا تكن عبدًا للسيجارة، واجعل رمضان نقطة انطلاق إلى ما يحبه الله ويرضاه.

واعلم أخي الحبيب أن من فضائل وفوائد الصيام: أنه علاج للإدمان وشرب الدخان [١].

فالصوم سمو بالروح إلى عالم الطهارة والخير، ومن هنا يجب الاستفادة من شهر رمضان في تحرير النفس، وخلاصها من كل ما هو مفسد ومدمر لها، مثل العادات السيئة: كالتدخين، والإفراط في استعمال المنبهات العصبية كالشاي والقهوة.

يقول الدكتور يسري عبد المحسن" أستاذ الطب النفسي والأعصاب بكلية طب جامعة القاهرة": " أما بالنسبة لحالات الإدمان بأنواعها المختلفة، سواء كانت من الأقراص المهدئة أو المنشطة أو على الحشيش والأفيون، أو الكوكايين والهيروين... فإن شهر الصوم قد يساعد كثيرًا في علاج هذه الحالات، وخصوصًا التي ظهر فيها الإدمان منذ فترة قصيرة؛ لأن الصوم مع الإرادة القوية يحقق عدم التعرض لتعاطي هذه المواد طوال فترة النهار حتى المغرب، ثم مع الإرادة القوية يستطيع المدمن أن يتغلب على الحنين، أو احتمالات الحاجة إلى تعاطي المادة التي أدمن عليها في فترة المساء، عن طريق ممارسة أنشطة العبادة: كالصلاة، وتلاوة القرآن الكريم، وسماع الأحاديث. وأن الاعتكاف في المسجد مع الانشغال المستمر بالممارسات الدينية المختلفة، يجعل المدمن في حالة من الطمأنينة والراحة النفسية، مع الإحساس بالأمان والهدوء الداخلي، الذي قد يبعده عن الإحساس بالحنين والحاجة إلى اللجوء لهذه السموم، وإذا لزم الأمر فقد يستطيع المدمن أن ينتظم على العلاج النفسي جنبًا إلى جنب، مع الاستفادة من صومه وتردده على المسجد في التخلص من عادته السيئة، وهنا يكون المسجد بمثابة المصحة النفسية في العزل الجزئي للمدمن خلال فترة المساء، أما في فترة النهار فإن الصوم وحده كفيل بضمان حسن سير العلاج، والامتناع عن تعاطي المواد المدمنة ". اهـ

١- وأنا لا اتحدث هنا عن حكم التدخين، والأدلة على تحريمه، وهناك رسالة للمؤلف بعنوان:" أضرار التدخين، وكيفية العلاج"، فارجع إليها فضلًا لا أمرًا.

٢٠- يا باغي الشر: إياك والجدال والخصومة خصوصًا في رمضان:

أخرج البخاري من حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: **خَرَجَ النبيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بلَيْلَةِ القَدْرِ فَتَلَاحَى رَجُلَانِ[1] مِنَ المُسْلِمِينَ فَقَالَ: خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلَاحَى فُلَانٌ وفُلَانٌ، فَرُفِعَتْ وعَسَى أنْ يَكونَ خَيْرًا لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا في التَّاسِعَةِ، والسَّابِعَةِ، والخَامِسَةِ.**

وفي الحديثِ: ذمُّ المُلاحَاةِ والخُصومةِ، وأنَّهما سَببُ العُقوبةِ للعامَّةِ بذَنْبِ الخاصَّةِ. وفي الحديث أيضًا دليل على أن الخصومة مذمومة، وأن الجدال سبب للحرمان، وأن المكان الذي فيه خصومه ترفع منه البركة، وزاد من فداحة هذه الخصومة وقوعها في المسجد؛ وهو محل الذكر لا اللغو. والنبي ﷺ قال:" **ولا تختَلِفوا فتَختلِفَ قلوبُكُم، وإيَّاكُم وَهَيشاتِ الأسواقِ** ". (أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ) (صحيح أبي داود: ٦٧٥)

أضف لهذا أن هذه الخصومة والملاحة حدثت في شهر رمضان؛ شهر المغفرة والرضوان والتسامح والإحسان.

أخي الحبيب... اعلم أن الخصومة والشحناء ليست سببا في حجب المغفرة في رمضان أو في ليلة النصف من شعبان فقط، بل في جميع أوقات المغفرة والرحمة.

كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس، فيُغْفَر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا ".**

وأخرج ابن ماجه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: **" كان النبي ﷺ يصوم الاثنين والخميس، فقيل له: يا رسول الله. إنك تصوم الاثنين والخميس، فقال: إن يوم الاثنين والخميس يغفِر الله فيهما لكل مسلم إلا متهاجرين، فيقول: دعوهما حتى يصطلحا ".**

- *وعند الإمام أحمد بلفظ:* **" كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس، فقيل له:** (أي سُئل في ذلك) **قال:" إن الأعمال تعرض كل اثنين وخميس، فيغفر لكل مسلم-أو لكل مؤمن- إلا المتهاجرين، فيقول أخِّرهما ".**

(صحيح الجامع: ٤٨٠٤)

- **والخصام والهجران سبب من أسباب دخول النار:**

فقد أخرج أبو داود من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" لا يَحِلُّ لمسلمٍ أن يهجرَ أخاه فوقَ ثلاثٍ، فمَن هجر فوق ثلاثٍ فمات دخل النارَ ".** (صحيح الجامع: ٧٦٥٩)

فانظروا رحمكم الله ماذا فعل الخصام؟ فقد كانت المُلاحَاة والخُصومة سببًا لرفع تعيين ليلة القدر وهذا شأن الخصومات تمنع الخير، وأنَّ المُلاحَاةَ والخُصومةَ قد تكونُ سَببًا لخَفاءِ بَعضِ ما يُحتاجُ إليه في الدِّينِ، فكلَّما أحدَثَ النَّاسُ ذُنوبًا، أوجَبَ ذلك خَفاءَ بَعضِ أُمورِ دِينِهم عليهم.

١- الرجلان: هما عبد الله بن أبي حدرد، وكعب بن مالك -رضي الله عنهما-.

فإن الواجب على المسلمين أن يكونوا متحابين متآلفين، يحب كل منهما لأخيه ما يحب لنفسه، ومن كانت بينه وبين أخيه خصومه فليبادر بالصلح، ومن كانت بينه وبين أحد أرحامه قطيعة فعليه أن يقوم بصلة رحمه فإن الخير يرتفع من الأرض بسبب الخصومات والشحناء.

فعلينا جميعًا أن نعمل بوصية رب العالمين، حيث قال في كتابه الكريم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ **(الأنفال:١)**

أي: أصلحوا حقيقة ما بينكم بالمودة وترك النزاع، هذا ما يريده منَّا رب العالمين، وأما ما يريده الشيطان الرجيم، **فقد أخبرنا عنه رب العالمين فقال:** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ (المائدة: ٩١)

فمَن تطيع رب العالمين، أم الشيطان الرجيم؟! والجواب معروف، وتمعن أخي الحبيب في هذا الحديث الذي ***أخرجه أبو داود وأحمد والبخاري في الأدب المفرد والترمذي عن أبى الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:*** **" ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة".**

فعلينا بإصلاح ذات البين، والعفو عن المسيئين **عملًا بقول رب العالمين:** ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عِمرَان: ١٣٤)

- **والعفو والصفح من هدي النبي ﷺ:**

فقد أخرج الترمذي عن عائشة-رضي الله عنها- قالَت وهي تصف خُلق رسولِ اللَّهِ ﷺ: **" لم يَكُن فاحِشًا ولا مُتفَحِّشًا ولا صخَّابًا في الأسواقِ، ولا يَجزي بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولَكِن يَعفو ويَصفَحُ ".**

(صحيح الترمذي: ٢٠١٦)

واعلم أخي الحبيب أنك إن عفوت عن أخيك فإن الله تعالى يزيدك بهذا العفو عزاً.

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي واللفظ له من حديث أبي كبشة الأنماري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

" ثلاثٌ أُقسِمُ عليهنَّ وأُحدِّثُكم حديثًا فاحفظوه، قال: ما نقص مالُ عبدٍ من صدقةٍ، ولا ظُلِم عبدٌ مظلمةً صبر عليها إلَّا زاده اللهُ عزًّا، فاعفوا يُعزَّكم اللهُ، ولا فتح عبدٌ بابَ مسألةٍ إلَّا فتح اللهُ عليه بابَ فقرٍ...".

(صحيح الترمذي: ٢٣٢٥)

وأُذكرك أخي الحبيب بقول رب العالمين حيث قال في كتابه الكريم: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٢٢)

هيا...هيا...أحبتي في الله... اعملوا بوصية الرسول الأمين ﷺ حيث قال كما في الحديث الذي أخرجه ***البخاري ومسلم من حديث أنس*** ﷺ ***أن رسول الله*** ﷺ ***قال:*** " لا تَبَاغَضُوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللَّهِ إخْوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ ".

فهل يتصور بعد هذا الكلام أن يكون في قلبك عداوة، أو حقد، أو غل، أو حسد، أو شحناء أو بغضاء لأحد؟!. إذا قلتَ: ما زلتُ أجد في صدري شيئًا من هذا، فأنا أوصيك بصيام ثلاثة أيام كما وصَّى بذلك رسول الله ﷺ.

فقد أخرج الإمام أحمد عن النمر بن تولب ﷺ ***قال: قال رسول الله*** ﷺ***:*** " مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنْ وَحَرِ صَدْرِهِ[1] فَلْيَصُمْ شَهْرَ الصَّبْرِ[2]، وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ". (صحيح الترغيب والترغيب: ٢٤٦٧)

وإذا قلتَ: ذهب عني ما أجد وأصبحت سليم الصدر، ولا أحمل في قلبي غلًا، ولا حقدًا، ولا غشًا، ولا حسدًا، ولا شحناء، ولا بغضاء لأحد... والحمد لله؛ فأنا أقول لك: أبشر، فلقد أصبحت من أفضل الناس.

فقد أخرج ابن ماجه بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما- قال: " قيل يا رسول الله! أي الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب [3]، صدوق اللسان. قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال:" هو النقي الذي لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد ".

وأخرج ابن سعد في الطَّبقات الكبرى وابن أبي الدنيا في الصَّمت عن زيد بن أسلم أنَّه دخل على ابن أبي دُجانة، وهو مريض، وكان وجهه يتهلَّل، فقال له: ما لك يتهلَّل وجهك؟ قال: ما من عملِ شيءٍ أوثق عندي من اثنتين: أمَّا أحدهما: فكنت لا أتكلَّم فيما لا يعنيني، وأما الأُخْرى: فكان قلبي للمسلمين سليمًا".
(صفة الصفوة: ٤٨٦/١)

نسأل الله أن يُؤلِّف بين قلوب المسلمين، ولا يجعل فيها غلًا ولا حسدًا، وأن يطهِّرها من الشحناء والبغضاء... آمين.

١- وَحَر صَدْرِهِ الوحر بفتحتين،: أي: غشه ووساوسه، أو حقده، أو غيظه، أو عداوته، وقيل أشد الغضب، وبالجملة فالمراد تنقية الصدر.
٢- شهر الصبر: هو شهر رمضان، وصيامه واجب، وثلاثة أيام من كل شهر من أوله أو من آخره أو وسطه، وهذا صيام نفل وليس واجبا.
٣- مخموم القلب: طاهر القلب نظيفه.

٢١- يا باغي الشر: أقصر عن اهتمامك بجسدك، وإهمال قلبك:

فمن الناس من يهتم بجسده ويهمل قلبه، في حين أن القلب هو محل السعادة والشقاء، والإيمان والكفر، واليقين والشك، وإنما فرض الصيام لأسرار وحكم لا يدركها مَن كان أكبر همه أن يمتلئ بطنه بعد طول فراغ، وأن يطفئ حرارة الجوع، وشدة العطش عند مغيب الشمس، وذلك آخر عهده بالصوم. إنما فُرِضَ الصوم ليسُلَّ من الصدور سخائمها، وليدفع عن القلوب أوضارها، وليؤتِ النفوس تقواها.

وبالصوم تنسد مسالك الأكل والشرب، ويفرغ القلب للتذكُّر والتدبُّر، والنظر والتأمُّل، فيرى حقيقة الدنيا وحقارتها، وقلة شأنها وهوانها، وأنها مهما عظمت فهي حقيرة، ومهما طالت فهي قصيرة.

أضف إلى هذا أن الصائم الصادق قد ستر قلبه عن الأحقاد والضغائن، وحال الصوم بينه وبين ما يفسده من أمراض القلوب، التي تقتل صاحبها في الدنيا، قبل أن تقتله أمراض البدن.

ويكفي ذمًّا للشحناء والتباغض والتقاطع والتدابر أنها قاطعة للبر والصلة ما حقهُ للخير والبركة، مانعة من المغفرة في ليلة النصف من شعبان وكذا يوم الاثنين والخميس.

وكيف يصوم مَن أفطر قلبه على سيئ الأعمال، وكريه الأخلاق، وانطوى صدره على الغش لإخوانه، وإلقاء العداوة بينهم، وإذكاء نيران الفرقة في صفوفهم؟

فسلامة القلب تكون بتفريغه من هذه المواد الفاسدة سواء أكانت شركِيَّات مهلكة أو اعتقادات باطلة، ومن وساوس سيئة، ومن نوايا خبيثة، ومن خطرات موحشة.

وسلامة قلب المؤمن كذلك تكون عن طريق تخليته من الكبر والعُجب والرياء والحسد، فإذا سلم القلب عن هذا كله؛ فإنه يصبح قلبًا طاهرًا عامرًا بحب الله، ويكون صاحبه من أفضل الناس.

فقد أخرج ابن ماجه بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما- قال: **" قيل: يا رسول الله! أي الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب[1] صدوق اللسان، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا غلّ ولا حسد".**

فإذا سلم القلب عن هذا كله فإنه يصبح قلبًا طاهرًا عامرًا بحب الله، قلبًا فيه نور وهاج لا تبقى معه ظلمة فتراه يُزْهِرُ كالمصباح، ويضيء كالشمس، ويلمع كالفجر.

- من أجل هذا ينبغي على الإنسان أن يهتم بباطنه أكثر من اهتمامه بظاهره؛ لأن الله ﷻ لا ينظر إلى الظاهر إنما محل نظر الرب إلى القلب، ***كما قال النبي ﷺ في" صحيح مسلم":*** **" إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ".**

وكان النبي ﷺ يقول كما في "مسند الإمام أحمد": **" التقوى ها هنا ".** ويشير إلى صدره.

١- مخموم القلب: طاهر القلب نظيفه، كما جاء في الحديث.

ومن هنا يظهر لنا أهمية القلب، وأنه ينبغي علينا أن نهتم به أكثر من اهتمامنا بالجسد:

فالإنسان منا يتعهد جسده بالعناية والاهتمام حرصًا على إبقاءه، فيأخذ بالأسباب لحياته، فتجده يتناول الطعام النافع في أوقات متقاربة حفاظًا على حياة الجسد، وإن أكل طعامًا مسمومًا عن طريق الخطأ، أسرع في التخلص منه، حفاظًا على حياة الجسد، وإذا مِرض أسرع إلى الطبيب وأخذ الدواء حفاظًا على حياة الجسد، وفي الشتاء القارص يلبس الملابس الثقيلة حفاظًا على حياة الجسد، وفي الصيف يلبس الخفيف من الملابس حفاظًا على هذا الجسد، فهو يحمي جسده من كل آفة ولا يعرضه لأي خطر.

وهذا كله لا شيء فيه، بل يكون فعله واجبًا، لكن على الإنسان كما يهتم بحياة جسده أن يهتم بحياة قلبه، بل وحياة القلب والاهتمام به أولى بالاهتمام من حياة الجسد.

فإذا كانت حياة الجسد تؤهله لمعيشة طيبة غير منغصة بالمرض في الدنيا، فحياة القلب تؤهله لمعيشة طيبة طاهرة في الدنيا، وسعادة غير متناهية في الآخرة. فإن مدار سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة على سلامة وصلاح القلب.

وكذلك موت الجسد يقطع الإنسان عن الدنيا، وموت القلب يقطع عن الدنيا والآخرة، وتبقى آلامه أبد الآباد.

قال بعض الصالحين:" عجبا لهؤلاء الناس يبكون على من مات جسده، ولا يبكون على من مات قلبه؛ وهو أشد ".

وهذا ما نراه جليًا واضحًا فإن كثيرًا ممن مات قلوبهم بالمعاصي والذنوب، وترك الطاعات والفرائض، لا يبكي عليهم أحدٌ، ولكن إذا ماتت الأجساد ارتفعت الأصوات وتعالت بالبكاء.

والإسلام لم يهتم بشيء في الإنسان بقدر ما اهتم بقلبه، فهذه المضغة هي بيت الإيمان وموقع الصدق ومحل الإخلاص، والقلب واللسان أعظم ما في الإنسان وأهم ما فيه، وكل أعمال الإيمان من خوف ورجاء، وتوكل وإنابة، وإخبات ويقين، وصدق ومحبة إنما محلها القلب.

وقبول الأعمال وتفاضلها إنما هو متوقف على ما في القلب من صدق وإخلاص ومعاني الإيمان، فمتى فرغ القلب منها فعند ذلك، لا يفيد عمل، ولا تقبل طاعة، ولا ينتفع عبد بعبادة.

- **ومن هنا يأتي أهمية الحديث عن القلب، فكل إنسان منا عليه أن يسعى لصلاح قلبه لأنه أصل كل خير.**

يقول ابن مفلح -رحمه الله-: " صلاح القلوب رأس كل خير، وفسادها رأس كل شر ".

ويقول العز بن عبد السلام-رحمه الله-: " صلاح الأجساد موقوف على صلاح القلوب، وفساد الأجساد موقوف على فساد القلوب ".

ولذلك قال النبي ﷺ:"... **ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ** ". (رواه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير ﷺ)

ومن هنا كان الاهتمام بالقلب أمرًا حتميًا، وأنه ينبغي أن يصوم عمَّا حرَّم الله تعالى؛ لأن بصلاحه يكون صلاح الجوارح واستقامتها.

قال الإمام النووي-رحمه الله-: " في هذا الحديث تأكيد على السعي في صلاح القلب وحمايته من الفساد".
(شرح مسلم للنووي: ٣٣/٦)

وقال الحافظ ابن حجر-رحمه الله-: " سمي القلب قلبًا لتقلبه في الأمور، أو لأنه خالص ما في البدن، وخالص كل شيء قلبه، أو لأنه وضع في القلب مقلوبًا،... وخص القلب بذلك لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير، تصلح الرعية، وبفساده تفسد. وفي هذا الحديث تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه ". اهـ (فتح الباري: ١٥٦/١).

وكان أبو هريرة ﷺ يقول: **" القلب مَلِكٌ والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده".**

ففي الحديث السابق ذَكَر النبيُّ ﷺ كَلمةً جامعةً لصَلاحِ حرَكاتِ بَني آدَمَ وفَسادِها، وهي أنَّ أساسَ صلاحِ الجَسدِ كُلِّه وأساسَ فسادِه مبنيٌّ على صلاحِ القَلْبِ وفَسادِه؛ فإذا صلَحَ القلبُ صلَحَت إرادتُه، وصلَحَت جَميعُ الجوارحِ، فلم تَنبعِثْ إلَّا إلى طاعةِ اللهِ، واجتنابِ سَخَطِه، فقَنِعَتْ بالحلالِ عن الحرامِ، وإذا فسَد القلبُ فسَدَت إرادتُه، ففسَدَتِ الجوارحُ كلُّها، وانبعثَتْ في مَعاصي اللهِ عزَّ وجلَّ، وما فيه سَخَطُه، ولم تَقنَعْ بالحلالِ، بلْ أسرَعَتْ في الحرامِ بحسَبِ هَوى القلبِ ومَيلِه عنِ الحقِّ. (الدرر السنية)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: " القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة، سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ: ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ ".

ويقول ابن رجب-رحمه الله- في" كتابه جامع العلوم والحكم":"... الأصل في التقوى والفجور هو القلب، فإذا بر القلب واتقى، برت الجوارح، وإذا فجر القلب فجرت الجوارح، كما قال النبي ﷺ:" التقوى ها هنا.. وأشار إلى صدره ".

والقلب هو محل نظرِ الرب سبحانه، كما قال ﷺ:" إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ". (رواه مسلم).

وفي سورة الحج قال سبحانه: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (الحج:٣٧).

قال د. محمد الخضيري: " ورد ذكر القلب في القرآن أكثر من ١٣٠ مرة وأضيف إليه أكثر من ٣٦ عملًا ووصفًا، وكل ذلك دال على عظيم محله، وأنه ملك الجوارح، ومع ذلك نرى إهمال العباد لقلوبهم؛ فلا يزكونها، ولا يتعلمون حق الله فيها، وينشغلون عنها بأعمال الجوارح وهي الأصل ". اهـ

وقفة: هل تعلم أخي الحبيب كما أن صيام القلب عن المواد الفاسدة سبيل لصلاح الجسد، كما مر بنا؟ فكذلك صيام الجسد عن الطعام والشراب سبيل لصلاح القلب، ***فقد قال الحبيب النبي*** ﷺ: **" ألا أخبركم بما يذهب وحر الصدر[1] قالوا: بلى يا رسول الله؟ قال: صوم ثلاثة أيام من كل شهر".**

ويقول إبراهيم الخواص-رحمه الله-: " دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتَّضرُّع عند السحر، ومجالسة الصالحين ".

وكذلك صيام النفس عن الشهوات سبيل لصلاح القلب.

يقول أبو سليمان الداراني-رحمه الله-: " إن جاعت النفس وعطشت، صفا القلب ورقَّ، وإذا شبعت ورويت عمِيَ ".

ويوم القيامة لا يدخل الجنة إلا صاحب القلب المنيب، ولا ينجو إلا صاحب القلب السليم، قال جل في علاه: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ(٣٣) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ(٣٤) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ (ق:٣٣-٣١)

وقال على لسان خليله إبراهيم: ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون(٨٧) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٨٧-٨٩)

والقلب السليم هو القلب الذي سلم توحيده لله من كل شرك، وسلم من كل شبهة تعارض الأمر، وكل شهوة تخالف النهي، وكل هوى يخالف مراد الله تعالى. ولهذا يسعى الشيطان لإفساد هذا القلب، وتفريغه مما ينفعه ويسره، وشغله بما يؤذيه ويضره، ويبذل وسعه لإعطابه وإبعاده عن السلامة التي لا ينجو إلا بها؛ ولهذا وجب صيانته منه ومن نزغاته، والانتباه لسلامة القلب ونقاوته لتتم له السلامة يوم الدين.

فصاحب القلب السليم هو الذي تكتب له النجاة عند العرض على رب العالمين يوم الدين، والقلب السليم هو الذي سَلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سوى الله، وسلم من تحكيم غير رسوله ﷺ، فخلصت عبوديته لله تعالى إرادة، ومحبة، وتوكلًا، وإنابة، وخشية، ورجاء، وخلص عمله لله، فإذا أحب أحب في الله، وإذا أبغض أبغض في الله، وأذا أعطى أعطى لله، وإذا منع منع لله.

واستقامة القلب بشيئين: أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدَّم عنده على جميع المحابِّ، فإذا تعارض حب الله تعالى وحب غيره، سبق حُبُّ الله تعالى حُبَّ ما سواه. الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب: تعظيم الأمر والنهي وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي. **(الوابل الصيب باختصار)**

١- وحر الصدر: والمعنى كما مر بنا: أي حقده وحسده.

يقول ابن القيم-رحمه الله- كما في" كتابه الداء والدواء ص:١٥١": " فالقلب السليم هو الذي يسلم من الشرك، والحقد، والحسد، والشح، والكبر، وحب الدنيا والرئاسة، فسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله. ولا تتم له سلامته مطلقا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص. وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحدة منها أنواع كثيرة، تتضمن أفرادا لا تنحصر.

ثم قال ابن القيم-رحمه الله-: " وَقَدْ أَجْمَعَ السَّائِرُونَ إِلَى اللَّهِ أَنَّ الْقُلُوبَ لَا تُعْطَى مُنَاهَا حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَوْلَاهَا، وَلَا تَصِلُ إِلَى مَوْلَاهَا حَتَّى تَكُونَ صَحِيحَةً سَلِيمَةً، وَلَا تَكُونُ صَحِيحَةً سَلِيمَةً حَتَّى يَنْقَلِبَ دَاؤُهَا، فَيَصِيرَ نَفْسَ دَوَائِهَا، وَلَا يَصِحُّ لَهَا ذَلِكَ إِلَّا بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا، فَهَوَاهَا مَرَضُهَا، وَشِفَاؤُهَا مُخَالَفَتُهُ، فَإِنِ اسْتَحْكَمَ الْمَرَضُ قَتَلَ أَوْ كَادَ. وَكَمَا أَنَّ مَنْ نَهَى نَفْسَهُ عَنِ الْهَوَى كَانَتِ الْجَنَّةُ مَأْوَاهُ، فَكَذَا يَكُونُ قَلْبُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي جَنَّةٍ عَاجِلَةٍ، لَا يُشْبِهُ نَعِيمُ أَهْلِهَا نَعِيمًا الْبَتَّةَ، بَلِ التَّفَاوُتُ الَّذِي بَيْنَ النَّعِيمَيْنِ، كَالتَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يُصَدِّقُ بِهِ إِلَّا مَنْ بَاشَرَ قَلْبُهُ هَذَا وَهَذَا.

وَلَا تَحْسَبُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (سُورَةُ الِانْفِطَارِ:١٣،١٤) مَقْصُورٌ عَلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَجَحِيمِهَا فَقَطْ بَلْ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثَةِ كَذَلِكَ - أَعْنِي دَارَ الدُّنْيَا، وَدَارَ الْبَرْزَخِ، وَدَارَ الْقَرَارِ - فَهَؤُلَاءِ فِي نَعِيمٍ، وَهَؤُلَاءِ فِي جَحِيمٍ، وَهَلِ النَّعِيمُ إِلَّا نَعِيمُ الْقَلْبِ؟ وَهَلِ الْعَذَابُ إِلَّا عَذَابُ الْقَلْبِ؟ وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْخَوْفِ وَالْهَمِّ وَالْحُزْنِ، وَضِيقِ الصَّدْرِ، وَإِعْرَاضِهِ عَنِ اللَّهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَتَعَلُّقِهِ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَانْقِطَاعِهِ عَنِ اللَّهِ، بِكُلِّ وَادٍ مِنْهُ شُعْبَةٌ؟ وَكُلُّ شَيْءٍ تَعَلَّقَ بِهِ وَأَحَبَّهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَسُومُهُ سُوءَ الْعَذَابِ.

فَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ عُذِّبَ بِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَهُوَ يُعَذَّبُ بِهِ قَبْلَ حُصُولِهِ حَتَّى يَحْصُلَ، فَإِذَا حَصَلَ عُذِّبَ بِهِ حَالَ حُصُولِهِ بِالْخَوْفِ مِنْ سَلْبِهِ وَفَوَاتِهِ، وَالتَّنْغِيصِ وَالتَّنْكِيدِ عَلَيْهِ، وَأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ فِي هَذِهِ الْمُعَارَضَاتِ، فَإِذَا سُلِبَهُ اشْتَدَّ عَلَيْهِ عَذَابُهُ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ فِي هَذِهِ الدَّارِ.

وَأَمَّا فِي الْبَرْزَخِ: فَعَذَابٌ يُقَارِنُهُ أَلَمُ الْفِرَاقِ الَّذِي لَا يَرْجُو عَوْدَةً وَأَلَمُ فَوَاتِ مَا فَاتَهُ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ بِاشْتِغَالِهِ بِضِدِّهِ، وَأَلَمُ الْحِجَابِ عَنِ اللَّهِ، وَأَلَمُ الْحَسْرَةِ الَّتِي تَقْطَعُ الْأَكْبَادَ، فَالْهَمُّ وَالْغَمُّ وَالْحُزْنُ تَعْمَلُ فِي نُفُوسِهِمْ نَظِيرَ مَا يَعْمَلُ الْهَوَامُّ وَالدِّيدَانُ فِي أَبْدَانِهِمْ، بَلْ عَمَلُهَا فِي النُّفُوسِ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ، حَتَّى يَرُدَّهَا اللَّهُ إِلَى أَجْسَادِهَا، فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ الْعَذَابُ إِلَى نَوْعٍ هُوَ أَدْهَى وَأَمَرُّ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ نَعِيمِ مَنْ يَرْقُصُ قَلْبُهُ طَرَبًا وَفَرَحًا وَأُنْسًا بِرَبِّهِ، وَاشْتِيَاقًا إِلَيْهِ، وَارْتِيَاحًا بِحُبِّهِ، وَطُمَأْنِينَةً بِذِكْرِهِ؟ حَتَّى يَقُولَ بَعْضُهُمْ فِي حَالِ نَزْعِهِ: وَاطَرَبَاهُ. وَيَقُولُ الْآخَرُ: مَسَاكِينُ أَهْلُ الدُّنْيَا، خَرَجُوا مِنْهَا وَمَا ذَاقُوا لَذِيذَ الْعَيْشِ فِيهَا، وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا. وَيَقُولُ الْآخَرُ: لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ. **وَيَقُولُ الْآخَرُ**: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

ويقول ابنُ القيم–رحمه الله– أيضًا في" مفتاح دار السعادة ص:٥٤": " الْقلبُ السَّلِيمُ الَّذِي ينجو من عَذَاب الله هُوَ الْقلبُ الَّذِي قد سَلِمَ لربه وَسلم لأمره وَلم تبْق فِيهِ مُنَازعَة لأمره وَلَا مُعَارضَة لخبره فَهُوَ سليم مِمَّا سوى الله وَأمره لَا يُرِيد الا الله وَلَا يفعل إِلَّا مَا أمره الله فَالله وَحده غَايَته وأمره وشرعه وسيلته وطريقته لَا تعترضه شُبْهَة تحول بَينه وَبَين تَصْدِيق خَبره لَكِن لَا تمر عَلَيْهِ إِلَّا وَهِي مجتازة تعلم أنه لَا قَرَار لَهَا فِيهِ وَلَا شَهْوَة تحول بَينه وَبَين مُتَابعَة رِضَاهُ وَمَتى كَانَ الْقلب كَذَلِك فَهُوَ سليم من الشّرك وسليم من الْبدع وسليم من الغي وسليم من الْبَاطِل وكل الأقوال الَّتِي قيلت فِي تَفْسِيره فَذَلِك يتضمنها وَحَقِيقَته أنه الْقلب الَّذِي قد سلم لعبودية ربه حَيَاء وخوفا وَطَمَعًا ورجاء ففني بحبه عَن حب مَا سواهُ وبخوفه عَن خوف مَا سواهُ وبرجائه عَن رَجَاء مَا سواهُ وَسلم لأمره وَلِرَسُولِهِ تَصْدِيقًا وَطَاعَة كَمَا تقدم واستسلم لقضائه وَقدره فَلم يتهمه وَلم ينازعه وَلم يتسخط لأقداره فَأَسْلَمَ لربه انقيادًا وخضوعًا وذُلًا وعبودية وَسَلِمَ جَمِيع أحواله وأقواله وإعماله وأذواقه ومواجيده ظَاهرًا وَبَاطنًا مِن مشكاة رَسُوله وَعرض مَا جَاءَ من سواهَا عَلَيْهَا فَمَا وافقها قبله وَمَا خالفها رده وَمَا لم يتَبَيَّن لَهُ فِيهِ مُوَافقَة وَلَا مُخَالفَة وقف أمره وأرجأه إلى أن يتَبَيَّن لَهُ وَسَالم أولياءه وَحزبه المفلحين الذابين عَن دينه وَسنة نبيه القائمين بهَا وعادى أعداءه الْمُخَالفين لكتابه وَسنة نبيه الخارجين عَنْهُمَا الداعين إلى خلافهما ". اهـ

بشرى لمن صلح قلبه:

أخرج الإمام أحمدُ من حديث أنس بن مالك ﷺ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ[١] مِنْ وُضُوئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ–رضي الله عنهما– فَقَالَ: إِنِّي لَاحَيْتُ أَبِي[٢] فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ أَنَسٌ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنْ اللَّيْلِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ[٣] وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ ثَمَّ وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مِرَارٍ فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ قَالَ فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي فَقَالَ مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ[٤]".

١ـ تنطف لحيته: يتساقط منها الماء.
٢ـ لاحيت أبي: أي نازعته.
٣ـ تعارّ: يفسرها الجملة التي بعده والمقصود: أي تقلب في فراشه.
٤ـ قال ابن كثير في " تفسيره": ٤/٣٣٨: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وكذا قال محقق المسند شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وسلامة القلب من أهم صفات عباد الرحمن، الذين مدحهم الله في كتابه قائلا: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر: ٩،١٠)

فمن صلح قلبه فقد وُلد من جديد:

فمن المعروف أن القلوب خلقت لمحبة الله وهذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لكن قد تنتكس هذه القلوب فتغرق في وحل الشهوات أو في ظلال الشبهات، فيتمكن الشيطان منها ويلعب بها كما يلعب الصبي بالكرة، فإذا أفاق الإنسان وتحرر من كيد الشيطان، ورجع إلى الرحمن، وامتلأ قلبه إجلالًا له، ومحبة، وتعظيمًا، وحياءً، فقد ولد هذا القلب من جديد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: " الولادة نوعان: أحدهما: هذه المعروفة. والثانية: ولادة القلب والروح وخروجهما من مشيمة النفس وظلمة الطبع، وهذه الولادة لما كانت بسبب الرسول ﷺ كان كالأب للمؤمنين ". اهـ

ومما سبق يتبين لنا أن حياة القلوب وإضاءتها مادة كل خير، وموت القلب وظلمته مادة كل شر، ومن هنا كان لابد من الاهتمام بالقلب ورعايته والمحافظة على صحته وسلامته وحمايته من الآفات التي قد تفتك به.

فعلى كل إنسان آمن بالرحمن وخاف سوء الحساب أن يفتش عن أحوال قلبه، ويسأل نفسه: أين قلبي؟ أهو مع الرحمن؟ أم مع الشيطان؟ أهو يجول في ملكوت الله ويسبح تحت العرش؟ أم أنه منغمسٌ في الشهوات، وهمه ملء الكرش والنوم على الفرش؟ أهو فوق الثريا؟ أم تحت الثرى؟

وها هو عبد الله بن مسعود ﷺ يقول لرجل: داوِ قلبك؛ فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم ".

أي مراده منهم ومطلوبه منهم صلاح القلب.

فلنعلم جميعًا أن السعادة والشقاء، والفوز والخسار، والنعيم والجحيم، نتيجة فساد أو صلاح هذه القلوب.

وقد أخرج الإمام أحمد والبخاري في" الأدب المفرد" عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " لا يَسْتَقِيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يَستَقيمَ قلبُه...". (صحيح الترغيب والترهيب: ٢٥٥٤)

فعلينا أن نهتم بصلاح القلوب فهو من الأهمية بمكان، وبه السعادة في الدنيا، والجنة في الآخرة. فاللهم حبِّب إلينا الإيمان؛ وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان حتى نلقاك بقلوب سليمة منيبة.

٢٢- يا باغي الشر: إياك والمَنّ على الله تعالى:

فهناك مَن يكثر من فعل الطاعة في رمضان، ثم تجده يقول: لقد قمتُ، وصمتُ، وفعلتُ... وفعلتُ، كأنه يمنُّ على الله لهذه الطاعات، وما علم هذا المسكين أن الذي أعانه على فعل هذه الطاعة هو الله تعالى، فكيف يمنّ على الله بها؟ **وهو القائل سبحانه:** ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل:٥٣)

وكان بعض السلف يقول: " كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلًا... ثم يعجب المسكين بعمله ".

ولقد بيَّن النبي ﷺ عقوبة المَنِّ على الله تعالى أو على غيره من البشر.

ففي الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " ثلاثة لا يُكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكِّيهم، ولهم عذاب أليم، قال: فقرأ رسول الله ثلاث مرات، قال أبو ذر: خابوا وخسروا مَن هم يا رسول الله؟ قال: المُسْبِل، والمنَّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ".

- ***وعند الطبراني:*** " ثلاثة لا يتقبَّل الله منهم صرفًا ولا عدلًا: عاق، ومنَّان، ومكذب بالقدر"

وتجد أن الشارع الحكيم شرع لنا الاستغفار بعد فعل الطاعة، لعل هذا الاستغفار يجبر كل نقص وزلل وخلل في الطاعة، ويستغفر اللهَ تعالى كحال المسيء المُقصِّر في حق سيده، حتى لا يعجبُ بعمله ويمنُّ على الله تعالى.

- فها هي الصلاة شُرِع لك بعدها أن تستغفر الله ثلاثًا.

- وكذا الحج تستغفر الله بعده، **كما قال تعالى:** ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة:١٩٩)

- ***والنبي ﷺ يُعلِّم عائشة -رضي الله عنها- أن تقول إذا وافقت ليلة القدر:*** " اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني". يأمرها أن تسأل العفو كالمسيء المقصر.

- وكذلك فرض النبي ﷺ زكاة الفطر بعد رمضان؛ طهرة للصائم من اللغو والرفث.

- وكذلك شرع صيام ستة أيام من شوال، وهذا شأن النافلة بعد الفرض؛ لجبر وسد الخلل الذي ربما قد يكون في الفرض، فإياك... إياك والمن على الله.

نسأل الله أن يتقبل منا صالح الأعمال، وأن يرزقنا وإياكم الإخلاص في القول والعمل، وفي السر والعلن.

٢٣- يا باغية الشر: أقصري عن التبرُّج، وعليك بالحجاب في رمضان بل وفي سائر شهور العام:

والتبرج: هو أن تبدي المرأة زينتها ومحاسنها، وما يجب أن تستره مما تستدعي به شهوة الرجال، وهذا فعل الجاهلية الأولى والتي نهى الله عنه، **قال تعالى:** ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (الأحزاب: ٣٣)

وأخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أميمة بنت رقيقة-رضي الله عنها- أنها جاءت إلي رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام فقال: **" أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئًا، ولا تسرقي، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك ولا تنوحي ولا تبرجي تبرج الجاهلية الأولي ".**

فيا أيتها المتبرجة... اتق الله في نفسكِ، وفي عباد الله الصائمين، ولا تكوني رسول الشيطان إليهم؛ لتفسدي قلوبهم، وتشوشي صيامهم.

أختاه... **احذري من التبرج**، فإنه موبقة من الموبقات، وهو يجلب اللعان والطرد من رحمة الله، وهو من صفات أهل النار، وهو ظلمة وسواد يوم القيامة، وهو نفاق وفاحشة، وتهتُّك وفضيحة

أخرج الطبراني في "الصغير" أن النبي ﷺ قال: **" سيكون في أمَّتي نساء كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت[١]، العنوهنَّ فإنهن ملعونات".**

وأخرج البيهقي بسند صحيح عن أبي أذينة الصدفي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **" خير نسائكم: الودود الولود المواتية، المواسية، إذا اتقين الله، وشر نسائكم المتبرجات المتخيلات وهن المنافقات لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم[٢]".**

وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات[٣] مميلات مائلات[٤] رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة[٥]، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد في مسيرة كذا وكذا".**

فإذا كانت المرأة المتبرجة محرومة من رائحة الجنة فضلًا عن دخولها، فكيف تهنأ بعيش آخره النار؟

أختاه... **يا من خلعت حجابك ولم تستحي من ربك ألست حفيدة خديجة وعائشة وفاطمة؟ ألست من نساء المؤمنين؟ إذا قلت: نعم. فعليك أن تنصاعي لقول رب العالمين:** ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٩)

أختاه... **أتعرفين من الذي أمرك بالحجاب؟ إنه الله. أتعرفين من هو الله؟** ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر:٦٧)

اعلمي... أن الذي أمرك بالعفة ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر:١٩)

١- البخت: نوع من الإبل.
٢- الغراب الأعصم: هو أحمر المنقار والرجلين، وهو كناية عن قلة مَن يدخل الجنة من النساء؛ لأن هذا الوصف في الغربان قليل.
٣- كاسيات عاريات: أي يكشفن شيئًا من أبدانهن إظهارا لجمالهن، أو يلبسن ثيابًا رقيقه تصف ما تحتها.
٤- مميلات مائلات: أي متبخترات في مشيتهن، مميلات أكتافهن، أو مائلات إلى الرجال مميلات لهم بما يبدين من زينتهن.
٥- كأسنمة البخت المائلة: أي يجمعن الضفائر فوق رؤوسهن فتشبه أسنمة الإبل.

اعلمي أيتها الأخت الفاضلة... أن المرأة إذا خلعت حجابها خلعت معه حيائها، ومَن خلعت حياءها خلعت معه إيمانها.

فقد أخرج الحاكم في" المستدرك" بسند صحيح عن ابن عمر-رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: **" إن الحياء والإيمان قُرِنَا جميعًا فإذا رُفِعَ أحدهما رُفِعَ الآخر".**

وصدق النبي ﷺ حيث قال كما عند البخاري: **" إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت ".**

أختاه... اسمعي هذا الحديث وعيه جيدًا، وانظري أين أنت منه: ***حديث أخرجه أبو داود أن النبي ﷺ قال:*** **"مَن جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة، فقالت أم سلمة: فكيف يصنع النساء بذيولهن؟ قال: يرخينه شبرًا، قالت: إذن تنكشف أقدامهن، قال: يرخين ذراعًا لا يزدن عليه".**

يا سبحان الله... الرسول ﷺ يقول لأم سلمة يرخينه شبرًا، ولكنها تقول: إن النساء لا يطيقن هذا؛ لأن أقدامهن ستنكشف عند المشي، فلم ترض أن يُرخَى الثوب شبرًا يجرجر في الأرض، ولكن فتيات هذا الزمان رضين بهذا الشبر، ولكنه ليس شبرًا يجرجر في الأرض، ولكنه شبرًا فوق الركبتين.

لحد الركبتين تشمرينا ... بربك أي نهر تعبرينا
كأن الثوب ظل في صباح ... يزيد تقلصا حينًا فحينًا
تظنين الرجال بلا شعور ... لأنك ربما لا تشعرينا

أختاه... شياطين الجن صُفدوا في رمضان، فلا تكوني سلعة رخيصة في يد شياطين الإنس الذين يريدون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

فيا أيتها المتبرجة:... يا كاشفة اللحم للافتراس... يا تاركة الكنز بلا حراس... يا عاشقة الظهور وواضعة العطور... كفاك قصمًا للظهور... أترضين أن يكون هذا حالك؟! يستخدمك الشيطان ويستأجرك، ويضيع ثوابك وثواب من يرمقك ويجاورك... ألا تقومي من الآن إن أردت أن تردي الشيطان وترضي الرحمن فتستري من اليوم لؤلؤة جمالك في صدفة حجابك، وتطيعي أمر ربك.

وانظري أختاه... إلى هذه المرأة السوداء، امرأة من أهل الجنة، تعالي لنرى قصتها.

أخرج البخاري ومسلم عن عطاء بن رباح عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال: **" ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى. فقال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت:" إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله تعالى لي، فقال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك، فقالت: أصبر. ثم قالت:" إني أتكشف، فادع الله تعالى لي ألا أتكشف، فدعا لها ".**

سبحان الله... تخاف أن يظهر شيء من جسدها، وهي تعاني من مرض الصرع، وهي معذورة ولكنها حيية عفيفة أبية، فطلبت من النبي ﷺ أن يدعو الله ألا تتكشف فهي تصبر على المرض وآلامه، ولكنها لا تصبر على التكشف، فما بال الذين يكشفون عن أجسادهم بلا مرض ولا صرع.

٢٤- يا باغية الشر: أقصري عن التطيُّب عند الذهاب للمسجد:

حيث تأتي بعض النساء إلى المسجد، وقد تعطَّرت وتجمَّلت وكأنها تزف في يوم عرسها، وهذا خطأ جسيم وإثم عظيم، ***فقد أخرج البيهقي بسنده أن النبي ﷺ قال:*** **" أيما امرأة تَطيَّبت، ثم خرجت إلى المسجد، لم تقبل لها صلاة حتى تغتسل ".** (صححه الألباني)

وعند الإمام أحمد أن أبا هريرة ﷺ استقبل امرأة متطيبة فقال لها: **" أين تريدين يا أمة الجبار؟ قالت: المسجد، فقال: وله تطيبتِ؟ قالت: نعم. قال أبو هريرة: إن رسول الله ﷺ قال: أيما امرأة خرجت من بيتها متطيِّبة تريد المسجد، لم يقبل الله ﷻ لها صلاة، حتى ترجع فتغتسل منه غسلها من الجنابة ".**

- وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:
" أيما امرأة استعطرت ثم خرجت، فمرّت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية، وكل عين زانية ".

- أخرج الإمام مسلم عن زينب زوجة عبد الله بن مسعود ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: **" إذا شهدت إحداكن المسجد، فلا تمسّ طيبًا ".**

- وأخرج الإمام أحمد وأبو داود عن أبي هريرة ﷺ: **" لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولكن ليخرجن وهن تفلات[1] ".**

قال ابن دقيق العيد: وفي الحديث السابق: حرمة التطيب على مريدة الخروج إلى المسجد؛ لما فيه من تحريك داعية الرجال وشهوتهم، وربما يكون سببًا لتحريك شهوة المرأة أيضًا.

وأخرج الإمام مسلم من حديث زينب الثقفية-رضي الله عنها- أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول لنا:
" إذا شهدت إحداكن العشاء في المسجد، فلا تتطيب تلك الليلة، ولا تمس طيبًا ".
- وفي رواية عند مسلم: **" أيما امرأة أصابت بخورًا، فلا تشهد معنا العشاء الآخرة ".**

وأنت إذا سألت هذه المرأة التي خرجت إلى المسجد، لماذا خرجت من بيتك إلى المسجد؟ قالت: طلبًا لرضا الله وجنته، وخوفًا من عقابه وناره، فنقول: يا أيتها الأخت الفاضلة إن ما عند الله من الرحمة والمغفرة، والعتق من النار لا يُنَال بمعصيته، وإنما ينال بطاعته.

تنبيه:

يقول المباركفوري-رحمه الله- كما في" تحفة الأحوذي:٦/١٧٣": " ويلحق بالطيب ما في معناه؛ لأن سبب المنع منه ما فيه من تحريك داعية الشهوة كالملبس والحلي الذي يظهر والزينة، وكذا الاختلاط بالرجال". اهـ

١- تفلات: غير متطيبات، يُقال امرأة تفلة: إذا لم تتطيب. (أفاده الخطابي في "معالم السنن").

٢٥- يا باغي الشر: إياك وتضييع الأوقات في رمضان، بل وفي سائر الأيام:

انصرف كثير من الناس في رمضان عن الصلوات المكتوبات، وانشغلوا بالفوازير والمسلسلات، وضيعوا الأوقات، وانغمسوا في الشهوات، ومنهم من يضيع نهاره في نوم وثبات، وبالليل في الأفلام والمباريات والتسكع في الطرقات، وكان بالإمكان أن يستثمر هذه الأوقات في التقرُّب إلى الله ﷻ بصالح الأعمال.

اعلم أخي الحبيب... إن المسلم ينبغي عليه أن يغتنم وقت فراغه في طاعة الله قبل أن يحول بينه وبين الأعمال الصالحة، فالوقت هو رأس مال العبد لا ينبغي عليه أن يفرط فيه ويضيعه فيما لا فائدة منه من لغو أو باطل، أو مما لا يعود عليه بالنفع، وعلى كل عبد أو أمة أن يستغل كل لحظة في حياته ويعمل ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، فاليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل، وكل ساعة تمر لا تقربكَ إلى الله، فهي عليكَ حسرة يوم القيامة، فعليكَ باغتنام الأوقات، والشباب والصحة، والغنى والفراغ قبل يوم الحسرات يوم يُطلب الرجوع عند الممات، فيقال لكَ: فات.

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: "**اغتنم خمسًا قبل خمسٍ: شبابك قبل هَرَمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك** ". (صحيح الجامع: ١٠٧٧)

جاء في كتاب "قصر الأمل ص:١٠٥ لابن أبي الدنيا عن عبد الواحد عن صفوان قال: " كنا مع الحسن في جنازة، فقال: رحم الله امرأً عمل لمثل هذا اليوم، إنكم اليوم تقدرون على ما لا يقدر عليه إخوانكم هؤلاء من أهل القبور، فاغتنموا الصحة والفراغ، قبل يوم الفزعة والحساب ".

أنت في غفلة الأمل ... لست تدري متى الأجل؟
لا تغرنَّك صحة فهي ... من أوجع العلل
فاعمل الخير واجتهد ... قبل أن تُمْنَع العمل

يقول سعيد بن جبير-رحمه الله-: " كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة ".

فالوقت هو رأس مال العبد وبه يشتري جنة نعيمها مقيم.

واعلم أخي الحبيب... **أن الوقت يتميز بأمور لا تكون في غيره، وهي:**

١- أنه أغلى ما في الوجود:

فليس في الوجود أغلى من الوقت، وليس في الحياة نعمة بعد الإيمان أعظم من نعمة الصحة والفراغ.

فقد أخرج البخاري عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: " **نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ** ".

يقول ابن الجوزي-رحمه الله-: " قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعت (أي الصحة والفراغ) فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها عن الآخرة، فمَن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون؛ لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهرم ". **(فتح الباري:١١/٢٣٤)**

ويقول ابن قدامة-رحمه الله-: " فاغتنم رحمك الله حياتك النفيسة، واحتفظ بأوقاتك العزيزة، واعلم أن مدة حياتك محدودة، وأنفاسك معدودة، فكل نفسٍ ينقص به جزءٌ منك، والعمر كله قصير، والباقي منه هو اليسير، وكل نَفَسٍ جوهرةٌ نفيسة لا عدلٌ لها ولا خلف منها، فإن بهذه الحياة اليسيرة خلود الأبد في النعيم أو العذاب الأليم، وإذا عادلت هذه الحياة بخلود الأبد علمت أن كل نفسٍ يعدل أكثر من ألف عام.

وصدق القائل حيث قال:

اغتنم في الفراغ فضل ركـوعٍ فعسى أن يكون موتُك بَغْتة
كم صحيحٍ رأيت من غير سُقْمٍ ذهبتْ نفسُه السليمةُ فَلْتــة

٢- كل لحظة تمر تدنيك من أجلك وتبعدك عن أملك:

يقول الحسن البصري-رحمه الله-: " يا ابن آدم اعلم أنك أيام معدودة، فإذا مر يومٌ، مر جزءٌ منك، وإذا مر الجزء فسيمرُّ الكل، وأنت تعلم فاعمل ".

ومر بنا قول ابن قدامة-رحمه الله-: " واعلم أن مدة حياتك محدودة وأنفاسك معدودة، فكل نفسٍ ينقص به جزءٌ منك ".

وصدق القائل:

إنــا لنفـرح بالأيــام نقطعهــا وكل يوم مضى يدني من الأجل

٣- ما مر من الوقت فلن يعود:

فما من يوم يمر على ابن آدم إلا قال له: يا ابن آدم إني يوم جديد وعلى ما تعمل فيَّ شهيد، وإذا ذهبت عنك لم أرجع إليك، فقدم ما شئت تجده بين يديك، وأخِّر ما شئت فلن يعود أبدًا إليك.

نعم. فلو اجتمع أهل الأرض جميعًا على أن يعيدوا إليك نفسًا واحدًا خرج منك ما استطاعوا.

يقول ابن رجب-رحمه الله-: " أيام العافية غنيمة باردة، وأوقات السلامة لا تشبهها فائدة، فتناول ما دامت لديك المائدة، فليست الساعات الذاهبات بعائدة ".

٤- الوقت مطية إلى جنة نعيمها مقيم أو نار عذابها أليم:

فقد أخرج ابن عدي في الكامل بسند فيه مقال عن النبي ﷺ أنه قال: **" الليل والنهار مطيتان فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة، واحذروا التسويف؛ فإن الموت يأتي بغتة، ولا يغترن أحدكم بحلم الله، فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ".**

وإن كان الحديث لا يصح إلا إن المعنى صحيح، ويشهد له أحاديث أخرى صحيحة.

- **وفى الأثر:** إن هذا الليل والنهار خزانتان فانظروا ما تضعون فيهما.

- ***وأخرج الإمام مسلم عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ عن رب العزة أنه قال:***"**... يا عبادي إنما أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه... ".**

وصدق القائل حيث قال:

إنما الدنيا إلى الجنة والنار طريق والليالي متجرٌ والإنسان والأيام سوق

فرأس مال الإنسان هو عمره، فإن أنفقه في طاعة الله ربح وفاز، وإن أنفقه في معصية الله، خاب وخسر.

وقد قال النبي ﷺ: **" كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها".** (رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري ﷺ)

فمن الناس من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب، **كما قال تعالى:** ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة: ١١١)

ومنهم من يبيعها بخسًا للشيطان والهوى باتباعهما، فيوبق نفسه ويهلكها، كما جاء في القرآن الكريم:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٢٢)

وكان السلف الصالح أعلم بقيمة الوقت، فكانوا حريصين على ألا تمر عليهم لحظة إلا في طاعة الله، وكانوا يعدون ذلك مغنمًا، وعلموا أن ضياع الوقت بلا فائدة مغرمٌ.

كما قال قائلهم: إذا مرَّ بي يومٌ ولم أقتبس هدى ولم أستفد علمًا فما ذاك من عمري

انظر إلى أبي بكر الصديق ﷺ وكيف كان حريصًا على أن يُعمَّر وقته بطاعة الله تعالى.

ففي الحديث الذي أخرجه الامام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" مَن أصْبَحَ مِنْكُمُ اليومَ صائِمًا؟ قالَ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْه: أنا، قالَ: فمَن تَبِعَ مِنْكُمُ اليومَ جِنازَةً؟ قالَ أبو بَكْرٍ ﷺ: أنا، قالَ: فمَن أطْعَمَ مِنْكُمُ اليومَ مِسْكِينًا؟ قالَ أبو بَكْرٍ ﷺ: أنا، قالَ: فمَن عادَ مِنْكُمُ اليومَ مَرِيضًا؟ قالَ أبو بَكْرٍ ﷺ: أنا، فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: ما اجْتَمَعْنَ في امْرِئٍ، إلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ.**

فالصديق ﷺ فعل هذه الأعمال في أول النهار، فكيف بباقي يومه؟ ولولا أن النبي ﷺ سأل ما علمنا ما قام به أبو بكر ﷺ، فيومه كان عامرًا بطاعة الله، وكان في قمة الإخلاص.

وانظر إلى سعد بن معاذ ﷺ أسلم وعمره ثلاثون عامًا، ومات وعمره سبع وثلاثون عامًا، فمدة إسلامه: سبع سنوات، وكان حريصًا على أن يُعمر وقته بطاعة الله، ولذلك لما مات حَظي بحفاوة، ونال من الفضل ما لم يتحصل عليه كثير من الناس، **حيث قال النبي** ﷺ **عند موته:** " **هذا الَّذي تحرَّك له العرشُ، وفُتحَتْ له أبوابُ السَّماءِ، وشهِده سبعونَ ألفًا من الملائكةِ** ".

(رواه النسائي من حديث عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما-)(صححه الألباني في صحيح النسائي: ٢٠٥٤)

- ***فها هو أبو مسلم الخولاني-رحمه الله- يقول:*** " لو رأيت الجنة عيانًا ما كان عندي مستزاد، ولو رأيت النار عيانًا ما كان عندي مستزاد". **(صفة الصفوة)**

- ***وقال رجل لعامر بن قيس-رحمه الله-:*** " قف أكلمك، قال: فأمسك الشمس".

- ***وكان داود الطائي-رحمه الله- يستف الفتيت ويقول:*** " بين سف الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية".

- ***وقال أبو بكر بن عياش-رحمه الله-:*** " ختمت القرآن في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة ".

- ***وكان عمير بن هانئ-رحمه الله- يسبح كل يوم مائة ألف تسبيحة. والنبي*** ﷺ ***يقول:*** " **مَن قال سبحان الله العظيم وبحمده؛ غُرست له نخلة في الجنة**" **(رواه الترمذي من حديث جابر)**

فكم ضيَّعنا من نخيل؟؟

- ***وها هو أبو البركات-رحمه الله- جد شيخ الإسلام ابن تيمية:*** " إذا أراد أن يدخل الحمام للاغتسال؛ يأتي بابنه ويقول: "يا بني اجلس عند باب الحمام واقرأ وارفع صوتك". **(حتى يحفظ وهو داخل الحمام)**

وقال الحسن البصري-رحمه الله-: " أدركت أقوامًا كان أحدهم أشح على عمره منه على درهمه ".

أما اليوم فقد ماتت فيه الهمم، وخارت العزائم، وأصبح هناك دعة وراحة وتكاسل، تمر الساعات والأيام والشهور والأعوام ولا يحسب لها حساب، **بل هناك من ينادي على صاحبه قائلًا:** " تعال لنضيع الوقت".

وهناك من وهب حياته للتلفاز، فلا يتحرك من أمامه إلا لدخول الخلاء فقط، فتضيع الأوقات بمشاهدة المباريات والأفلام والمسلسلات، أو الجلوس في الطرقات طوال النهار، أو المحادثة على الشات، وتضيع الساعات على النت أو الفضائيات أو المكالمات، ومن النساء من تقف الساعات الطوال أمام المرآة، وغير ذلك من صور ضياع الوقت الممقوتة، وهذا كله دليل على مقت الله للعبد، **كما قيل:** " **من علامة المقت إضاعة الوقت**".

فالمؤمن ليس عنده وقت فراغ، **قال تعالى لنبيه** ﷺ: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ (الشرح:٨)

فَإِذَا فَرَغْتَ من شغلك ومن الناس ومن شواغل الحياة، فتوجه إلى الله تعالى بالطاعة والعبادة.

يقول الشافعي-رحمه الله-: " صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين، سمعتهم يقولون:" الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل".

قال ابن القيم-رحمه الله- كما في" مدارج السالكين" مُعلقًا على كلام الشافعي: " يا لها من كلمتين ما أنفعهما وأجمعهما، وأدلهما على علو همة قائلها ويقظته ". اهـ

- فمن جهل الناس بقيمة الوقت يفرحون بمغيب شمس كل يومٍ، وهم لا يدركون أن هذا نهاية يوم من أعمارهم لن يعود أبدًا إليهم، صحائف طويت، وأعمال أحصيت، وأنفاس انقضت.

٢٦- يا باغي الشر: إياك والكسل خصوصًا في رمضان شهر المغفرة والرضوان، والعتق من النيران:

وهذه الوصية من الأهمية بمكان خصوصًا في هذا الزمان، فالكسل داء عضال إذا تمكن من الإنسان أصاب دينه ودنياه، وهو عقبة كؤود في طريق السالكين إلى رب العالمين، فلا نجاح ولا فلاح إلا باجتيازها وتخطيها.

وقد عرف النووي-رحمه الله- الكسل فقال: " هو عدم انبعاث النفس للخير، وقلة الرغبة مع إمكانه ".

(شرح النووي على مسلم: ١٧/ ٢٨)

ولبيان أهمية الموضوع لنا وقفة مع *الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري* ﷺ ***قال: قال رسول الله*** ﷺ: **"... ويؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم، قلنا: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها: السَّعدان، يمر المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مُسلَّمْ، وناج مَخْدُوش، ومَكْدُوس في نار جهنم، حتى يمرَّ آخرهم يُسحَب سحبًا "**.

فالملاحظ من الحديث السابق هو تفاوت الناس في سرعة مرورهم على الصراط؛ وهذا بحسب درجة إيمانهم، ونشاطهم وإقبالهم على طاعة ربهم، وهناك من يتباطأ به عمله، وهناك من يُقعده كسله عن طاعة ربه، وهذا عين الخذلان والخسران.

يقول ابن كثير-رحمه الله- في" تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾(مريم:٧٢)":" أي إذا مرَّ الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها مَن سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي، بحسبهم، نَجَّى الله تعالى المؤمنين منها بحسب أعمالهم، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا".

وأهل الجنة كذلك يتفاوتون في المنازل والدرجات بحسب نشاطهم في العبادة وإقبالهم على الطاعة.

ويدل على هذا الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ ***أن رسول الله*** ﷺ ***قال:*** **" إنَّ أهلَ الجنةِ لَيتراءَون أهلَ الغُرَفِ من فوقِهم، كما تُراءون الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ في الأُفُقِ من المشرقِ أو المغربِ لتفاضُلَ ما بينهم..."**.

وهناك صنف من الناس ظل بهم الكسل حتى أقعدهم عن العمل، فأولئك كالأنعام بل هم أضل.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٩)

وقال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان:٤٤)

يقول الراغب الأصفهاني-رحمه الله-: " من تعطل وتبطَّل انسلخ من الإنسانية، بل من الحيوانية، وصار من جنس الموتى، ولأن الفراغ يبطل الهيئات الإنسانية، فكل هيئة بل كل عضو تُرك استعماله يبطل، كالعين إذا أغمضت، واليد إذا تعطلت، وكما أن البدن يتعود الرفاهية بالكسل، كذلك النفس بترك النظر والتفكر تتبلد وتتبله، وترجع إلى رتبة البهائم". (الذريعة إلى مكارم الشريعة ص:٢٦٩).

استعاذة النبي- صلى الله عليه وسلم- من الكسل:

لخطورة الأمر وأهميته كان النبي ﷺ يكثر من الاستعاذة بالله من الكسل.

ففي صحيح مسلم من حديث زيد بن أرقم ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ القَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا[1] أَنْتَ خَيْرُ مَن زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ[2]، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا ".

وقال القرطبي -رحمه الله- كما في" المفهم:٧/ ٣٤": " الكسل المتعوَّذ منه هو التثاقل عن الطاعات وعن السعي في تحصيل المصالح الدينية والدنيوية، والعجز المتعوذ منه هو عدم القدرة على تلك الأمور". اهـ.

وقال ابن بطال-رحمه الله- كما في" فتح الباري:١٠/ ١٧٧": " والاستعاذة من العجز والكسل؛ لأنهما يمنعان العبد من أداء حقوق الله وحقوق نفسه وأهله، وتضييع النظر في أمر معاده وأمر دنياه، وقد أُمر المؤمن بالاجتهاد في العمل والإجمال في الطلب، ولا يكون عالةً ولا عيالًا على غيره ما مُتِّع بصحة جوارحه وعقله ". اهـ.

الكسل من الشيطان:

مما لا شك فيه أن الشيطان عدو للإنسان كما قال الرحمن ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (يوسف:٥) فعداوته للإنسان ظاهرة وهو يسلك كل السبل لإغوائه والوقوع في شراكه وهذا ما صرح به اللعين فقال مخاطبًا رب العالمين: ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٦،١٧)

١- زكها: أي طهرها.

٢- ومن نفس لا تشبع: معناه استعاذة من الحرص والطمع والشره، وتعلق النفس بالأموال.

فالشيطان توعد بأن يأتي بنى آدم من جميع الجهات للتزهيد في الآخرة، والترغيب في الدنيا، وإلقاء الشبهات، وتحسين الشهوات. فالشيطان حريص على أن يصد الناس عن وجوه الخير كلها وله في صرف الناس عن طرق الخير سبل ووسائل مختلفة، فهو يأتي لكل نفس من طريق يناسبها ولغاية واحدة وهي: صرفه عن الرشد إلى الغي، وعن اتباع الشرع إلى اتباع الهوى، وعن الجنة إلى النار.

ففي جانب النهى-أي ما نهى الله عنه-:

فإن الشيطان يوسوس في النفوس ويزين المحرم، ويحث على الإقدام على المحرمات، ويهون أمرها، ويعد ويمني التوبة، ويذكر بسعة رحمة الله. **قال تعالى:** ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (النساء:١٢٠)

وقال تعالى: ﴿ . . . . وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٦٨،١٦٩)

أما في جانب الأمر-أي ما أمر الله به -:

فيقول ابن القيم-رحمه الله- كما في كتابه" الوابل الصيب ص:٣٩": " ما أمر الله ﷻ بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو. فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين، فإنه يأتي إلى قلب العبد فيشتامه، فإن وجد فيه فتورًا وتوانيًا وترخيصًا أخذه من هذه الخطة فثبطه وأقعده وضربه بالكسل والتواني والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك، حتى ربما ترك العبد المأمور جملة. وإن وجد عنده حذرًا، وجِدًّا وتشميرًا ونهضة وأيس أن يأخذه من هذا الباب أمره بالاجتهاد الزائد وسول له أن هذا لا يكفيك وهمتك فوق هذا، وينبغي لك أن تزيد على العاملين، وأن لا ترقد إذا رقدوا، ولا تفطر إذا أفطروا، وأن لا تفتر إذا فتروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات فاغسل أنت سبعًا، وإذا توضأ للصلاة فاغتسل أنت لها، ونحو ذلك من الإفراط والتعدي، فيحمله على الغلو والمجاوزة وتعدي الصراط المستقيم، كما يحمل الأول على التقصير دونه وأن لا يقربه، ومقصود من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم: هذا بأن لا يقربه ولا يدنو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه، وقد فتن بهذا أكثر الخلق ولا ينجي من ذلك إلا علم راسخ، وإيمان، وقوة على محاربته، ولزوم الوسط، والله المستعان". اهـ باختصار.

فالشيطان-لعنه الله- مصدر الغلو والكسل، بل هو مصدر كل فتنة وشر، وما من خير وفضيلة إلا ووقف في طريقها صادًا، وما من شر ورذيلة إلا ودعا إليها وحث عليها، وقد تبين مما سبق أن كسل العبد وتفريطه من الشيطان.

ومما يدل على ذلك الحديث الذي أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ العُطَاسَ، ويَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ، فإذا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ، فَحَقٌّ علَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أنْ يُشَمِّتَهُ، وأَمَّا التَّثَاؤُبُ: فإنَّما هو مِنَ الشَّيْطانِ[1]، فَلْيَرُدَّهُ ما اسْتَطَاعَ، فإذا قالَ: ها، ضَحِكَ منه الشَّيْطانُ ".

١ - قال ابن بطال- رحمه الله - كما في" فتح الباري: ٣٧٠/٩": ومعني إضافة التثاؤب إلى الشيطان: إضافة رضى وإرادة، أي أن الشيطان يحب أن يرى تثاؤب الإنسان، لأنها حال المُثْلَة وتغيير لصورته فيضحك من جوفه، لا أن الشيطان يفعل التثاؤب في الإنسان لأنه لا خالق للخير والشر غير الله، وكذلك كل ما جاء من الأفعال المنسوبة إلى الشيطان فإنها على معنيين: إما إضافة رضى وإرادة، أو إضافة بمعنى الوسوسة في الصدر، والتزيين. اهـ.

وعند مسلم أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن الحبيب النبي ﷺ قال: **" إذا تَثاءَبَ أحَدُكُمْ، فَلْيُمْسِكْ بيَدِهِ علَى فِيهِ، فإنَّ الشَّيْطانَ يَدْخُلُ.. ".**

فأخبر النبي ﷺ في الأحاديث السابقة أن التثاؤب من الشيطان وهذا التثاؤب يدل على الكسل والخمول.

قال القرطبي-رحمه الله- كما في" المفهم:٦/ ٦٢٥": " التثاؤب أصله من ثاب الرجل إذا استرخى وكسل، ونسبته إلى الشيطان، لأنه يصدر عن تكسيله فإنه قل إن يصدر ذلك التثاؤب مع النشاط، وقيل: نسب إليه لأنه يرتضيه ". اهـ.

وقال المناوي-رحمه الله- كما في" فيض القدير:٢/ ٢٩٨": " التثاؤب بالهمز وقيل بالواو: هو تنفس ينفتح منه الفم بلا قصد، وذلك لأنه يكون عن امتلاء البدن وثقله، وكثرة الغذاء، وميله إلى الكسل، فيثبط صاحبه عن الطاعة، فيضحك منه الشيطان، ولهذا شرع كظمه وردُّه ما أمكن ".

وفائدة الكظم هي: عدم دخول الشيطان، ودحره وإغاظته لأنه يفرح بكسل الإنسان، فالكظم يكيده ويخزيه.

يقول ابن بطال-رحمه الله- كما في" شرح البخاري: ٩/ ٣٦٩": " فواجب اخزاؤه ودحره بردِّ التثاؤب، كما أمر النبي ﷺ ". اهـ.

وقال الشيخ ابن عثيمين-رحمه الله- كما في" شرح رياض الصالحين:٣/ ٤٣": " التثاؤب من الشيطان، ولهذا كان الله يكرهه لأن التثاؤب يدل على الكسل والشيطان يحب من ابن آدم أن يكون كسولًا فتورًا، أعاذنا الله وإياكم منه ويكره الشيطان الرجل النشيط الجاد الذي دائما يكون في عزم وقوة ونشاط ". اهـ.

فالتثاؤب رمز الكسل وشعاره، وسلاح من أسلحة الشيطان، وجند من جنوده بعكس العطاس الذي ينفض عن العبد غبار الكسل ويجدد الحيوية في الجسد.

أضرار الكسل:

الكسل له أضرار كثيرة، ومفاسد عظيمة، وهذه الأضرار والمفاسد تعود على المرء في دينه ودنياه، ومنها:

١- ضياع العمر والصحة فيما لا فائدة فيه، وهو ما يعرف بالغبن:

فالصحة والفراغ من أعظم نعم الله على العبد، وكل نعمة مفتقرة إليهما، فاستغلال أوقات الفراغ في طاعة الرحمن سبيل لسكنى أعالي الجنان، وهذه الطاعات لا تفعل على وجه التمام إلا لمن كانت لديه صحة تعينه على فعل هذه الطاعة بقوة ونشاط.

أما الكسول والذي من الله عليه بنعمة الصحة والفراغ فإنه يضيع الأوقات وهي أغلى ما يملك دون أي فائدة تذكر، ولا أي عمل صالح يشهر، والصحة في النقصان، والعمر يهدر ويظل هكذا إلى أن يُقْبر فما أعظم غبن الكسول المهمل. ***وقد جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:*** **" نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ النَّاسِ الصِّحَّةُ والفراغُ ".**

يقول ابن الجوزي-رحمه الله- كما في" فتح الباري: ١١/٥٧٦ ": " قد يكون الإنسان صحيحا ولا يكون متفرغا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيا ولا يكون صحيحا، فإذا اجتمعا-أي الصحة والفراغ- فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهرم ". اهـ.

ويقول السفاريني -رحمه الله- كما في" غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ٢/٤٤٤": " إياك والغبن، والتمادي في الكسل، وهوى النفس، واجهد في فكاك نفسك وخلاصها من القيود ". اهـ.

فكل من لا يستغل صحته وفراغه في طاعة الله سيندم يوم لا ينفع الندم.

ويقول القاري-رحمه الله- كما في" المرقاة شرح المشكاة:٩/٥": " ولا يعرف قدر هاتين النعمتين كثير من الناس حيث لا يكسبون فيهما من الأعمال كفاية ما يحتاجون إليه في معادهم فيندمون على تضييع أعمارهم عند زوالها ولا ينفعهم الندم. **قال تعالى:** ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (التغابن:٩)

ومن أعظم الغبن: أن يخبرنا رب العالمين في كتاب الكريم بأن الجنة التي أعدها لعباده المتقين عرضها السماوات والأرض، ثم لا يجد أحدنا فيها موضع قدم؟

ومن أعظم الغبن كذلك: من غلبت آحاده عشراته، فالله تعالى أخبرنا بأن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بمثلها فهل يُتصور أن يأتي الإنسان منا يوم القيامة وقد غلبت آحاده عشراته؟ فمن كان كذلك فهو المغبون الهالك.

٢- ومن أضرار الكسل: أنه سبب للغفلة والبعد عن الله- تعالى-:

فمن الناس من يظل به الكسل حتى يثقل عليه الخير وأعمال البر فتراه لا يحضر مجالس العلم وإذا حضر كانت عليه ثقيلة ثقل الجبال وتراه لا يذكر الرحمن، ولا يقرأ القرآن، ولا يصل الأرحام، وإذا حضر إلى الصلاة يحضر بكسل وفتور بل ربما يظل به الكسل حتى يتخلف عنها.

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة -رضي الله عنهم- أَنَّهُما سَمِعا رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ علَى أعْوادِ مِنْبَرِهِ: " **لَيَنْتَهِينَّ أقْوامٌ عن ودْعِهِمُ الجُمُعاتِ، أوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ علَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكونُنَّ مِنَ الغافِلِينَ** ".

قال القاضي عياض-رحمه الله- كما في" فيض القدير:٥/ ٣٧٩": " معنى هذا أن أحد الأمرين كائن لا محالة إما الانتهاء عن تركها وإما الختم، فإن اعتياد تركها يزهد في الطاعة، ويجر إلى الغفلة. اهـ.

وقد قيل: " تخلف ثلاثة عن الرسول ﷺ في غزوة، فجرى لهم ما علمت، فكيف بمن عمره في التخلف عنه؟! ". (بدائع الفوائد: ٣/ ١٢٠٨)

٣- من أضرار الكسل: الاتصاف بصفات المنافقين:

الكسل عن الطاعات والقربات متأصل في المنافقين، ولذلك فإنه من أبرز علاماتهم وصفاتهم، وقد نعتهم الله بذلك على سبيل الذم والتحقير. **قال تعالى:** ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ١٤٢)

فهذا حال المنافقين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى متثاقلين، لأنه لا إيمان يدفعهم لفعل الخيرات، ولا خوف يمنعهم عن ترك المنهيات.

يقول ابن كثير-رحمه الله- في تفسير هذه الآية:١/٧٨٠": هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة، إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها، لأنهم لا نية لهم فيها ولا إيمان لهم بها، ولا خشية ولا يعقلون معناها، وقد روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يناجي الله تعالى، وأن الله أمامه يغفر له ويجيبه إذا دعاه، **ثم تلا ابن عباس** ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ ". اهـ.

وسبب قيامهم إلى الصلاة – رُغْم الكسل والثقل الذي يجدونه **هو كما قال تعالى:** ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ ولو أتيحت لهم الفرصة في التخلف عن الصلاة، لتخلفوا، ولهذا لا يشهدون صلاة العشاء والفجر حيث الظلمة الشديدة فهم لا يُرون فيها، ***وقد قال النبي ﷺ واصفًا لهم:*** " إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةُ الْفَجْرِ ". (رواه مسلم).

يقول عليّ رضي الله عنه: " للمنافق ثلاث علامات يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان بين الناس، ويزيد في العمل إذا أُثني عليه، وينقص إذا ذُمَّ ". (الزواجر في اقتراف الكبائر:١/٦٣)

وقال تعالى أيضًا عن المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (التوبة: ٥٤)

فتضمنت هذه الآية زيادة وصفهم أنهم لا ينفقون إلا على كراهية، لأنهم يعدونها مغرمًا، ولذلك فإن المنافق متكاسل عن أدائها، متردد في بذلها. **والمنافقون موصوفون أيضًا بالكسل في الجهاد**

قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة ٨١،٨٢)

الحاصل أن حالة المنافقين عند سائر أعمال البر والطاعات والقربات من فرائض ومستحبات هي التكاسل والتثاقل والتهرب، وهذا حال المنافق.

يقول القرطبي-رحمه الله- في" تفسيره:٨/١٤٨": " النفاق يورث الكسل في العبادة لا محالة ". اهـ.

٤- ومن أضرار الكسل: الحرمان في الدنيا من السيادة، والقيادة، والريادة:

وحرمان السيادة والقيادة والريادة يكون على المستوى الخاص والعام.

أما المستوى الخاص: فالكسول لا ينال شرف السيادة بين الناس. فما عُلم أن كسلان أو وسنان صاحب الهمة الضعيفة ساد قومه، أو نال درجة عالية بين أقرانه.

يقول ابن القيم -رحمه الله- كما في" كتابه شفاء العليل ص:٢٢٥": " إن العقلاء قاطبة متفقون على استحسان إتعاب النفوس في تحصيل كمالاتها من العلم والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، وطلب محمدة من ينفعهم حمده وكل من كان أتعب في تحصيل ذلك كان أحسن حالا، وأرفع قدرًا، وكذلك يستحسنون إتعاب النفوس في تحصيل الغنى والعز والشرف، ويذمون القاعد في ذلك وينسبونه إلى دناءة الهمة وخسة النفس وضعة القدر ". اهـ.

فمن لبس رداء الكسل، والتحف بغطاء الراحة، انحط قدره، وخمل ذكره.

وقيل في حق الكسلان تهكمًا:

دع المكــارم لا ترحــل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فالكسول لا يسود ولا يقود، ودائما يحتاج لغيره، فهو عالة على الآخرين.

بجانب أن الكسول أضاع دينه، فلا يقيمه كما أمره الله، ولا يتعلم كيف يعبد الله، ولا يهتم بتقصيره فإنه بكسله؛ أضاع كذلك نفسه حيث يحتاج دائما إلى غيره في شؤون حياته، وبكسله؛ أضاع زوجته وأولاده حيث لم يوفر لهم الحياة الكريمة.

وقد جاء في سنن أبي داود عن عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **" كفى بالمرءِ إثمًا أن يُضَيِّعَ من يقوتُ ".** (ضعيف)

وفي صحيح مسلم: **" وأن لزوجِك عليك حقًا ".** ***وفي رواية:*** **" وإنَّ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ".**

وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **" اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وابْدَأْ بمَن تَعُولُ، وخَيْرُ الصَّدَقَةِ عن ظَهْرِ غِنًى، ومَن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، ومَن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ ".**

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: " إن العبد إذا كان زاهدا بطالا، فسد أعظم فساد، وهؤلاء لا يعمرون الدنيا ولا الآخرة ". اهـ. (مجموع الفتاوى:٢٠/١٥٠)

وقد قيل: الجاهل يعتمد على الأمل، والعاقل يعتمد على العمل. (فيض القدير:٤/٢٢٩)

وقيل أيضًا: من أراد السيادة فعليه بترك الوسادة.

فالكسول لا ينال شرف السيادة بين الناس، لأنه اكتفى بالكسل، ورضي أن يعيش عالة على غيره.

وقد مر بنا كلام ابن بطال-رحمه الله-حيث قال كما في" فتح الباري:١٠/١١٧": " والعجز والكسل يمنعان العبد من أداء حقوق الله، وحقوق نفسه وأهله، وتضييع النظر في أمر معاده وأمر دنياه، وقد أمر المؤمن بالاجتهاد في العمل والإجمال في الطلب ولا يكون عالة ولا عيالًا على غيره ما مُتع بصحة جوارحه وعقله". اهـ

أما على المستوى العام، فإن الكسل يؤدي بالأمم إلى التخلف عن ركب الحضارة والتقدم:

فالكسل طريق انهيار الشعوب والأمم، فأمّة يَكْسُل أبناؤها أمّة لا تبني ولا تُعمِّر، بل تتراجع عن موكب التقدم والحضارة. ولهذا لما سئل بعض البرامكة عن سبب زوال ملكهم، قال:" نوم الغدوات، وشرب العشيات

(روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار: ١/ ٣٨٧)

ويقول ابن القيم -رحمه الله- كما في" شفاء العليل: ص:٢٥٠": أجمع العقلاء قاطبة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن الراحة لا تنال بالراحة، وأن من آثر اللذات فاتته اللذات ".

وكما قيل: الجَدُّ في الجِدِّ، والحرمان في الكسل.. فانصب تُصب عن قريب غاية الأمل، فهناك من الأمم المحدودة الموارد ولكن أفرادها من أصحاب الهمم العالية والإرادة القوية فسادوا وقادوا، وهناك من الأمم والتي حباها الله بالثروات البشرية والطبيعية ما لا حصر لها، ولكن إرادتها مسلوبة، وهمتها خامدة، فكان الفشل حليفها والتخلف شعارها، والفقر دثارها.

وفي ذلك قال هلال بن العلاء الرفاء:

كأن التواني أنكح العجز بنته ... وساق إليها حين زوجها مهرًا

فراشًا وطيئًا ثم قال لها اتكي ... فإنكمـا لا بد أن تلدا الفقرا

(المستطرف: ٢/١٧٧)

فإذا اتصف أبناء الأمة بالكسل فهذا سبب في تأخرها بين الأمم، لأن العمل والإنتاج هما عصب الحياة، فالأمة المنتجة القوية لها السيادة والقيادة بين الأمم، ولذلك لا سبيل إلى رفعة الأمة وقوتها إلا بالعمل والتخلي عن الكسل.

قال المناوي-رحمه الله- كما في" فيض القدير:١/ ٢١٥": " وقد قيل من رام العلا من غير كدٍّ أضاع العمر في طلب المحال. اهـ.

لذا حثنا الله تعالى على العمل والجد والسعي وسوى بين هذا وبين الجهاد في سبيله؛ **فقال سبحانه:**

﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (المزمل: ٢٠)

قال الإمام القرطبي-رحمه الله- في" تفسيره: ١٩/ ٥٥ عند هذه الآية": " سوى الله في هذه الآية بين درجة المجاهدين وبين المكتسبين المال الحلال للنفقة على نفسه وعياله، والإحسان والإفضال، فكان هذا دليلًا على أن كسب المال بمنزلة الجهاد، لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله ". اهـ.

وقد بيَّن النبي ﷺ أن العمل والسعي من أجل إعفاف النفس وإعالة الأولاد، وسد حاجة الوالدين، نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله:

فقد أخرج البيهقي في السنن الكبرى عن أبي هريرة ﷺ قال: " بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ طلع علينا شاب من الثنية، فلما رأيناه بأبصارنا قلنا: لو أن هذا الشاب جعل شبابه ونشاطه وقوته في سبيل الله؟ قال: فسمع مقالتنا رسول الله ﷺ فقال:" وما سبيلُ اللهِ إلا من قتل؟ من سعى على والديه ففي سبيل الله، ومن سعى على عياله ففي سبيل الله، ومن سعى على نفسه ليُعفها ففي سبيل الله، ومن سعى على التكاثر فهو في سبيل الشيطان ". (قال الألباني: وإسناده جيد)

- وفي رواية عند الطبراني في معاجمه الثلاثة عن كعب بن عجرة ﷺ قال: " مر على النبيِّ ﷺ رجلٌ فرأى أصحابُ النبي ﷺ جَلَده ونشاطَه فقالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ:" إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبويه شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان ". (صحيح الجامع: ١٤٢٨)

٥- ومن أضرار الكسل: تفويت الأجور العظيمة:

فالكسل ربما يحمل الإنسان إلى ترك السنن الرواتب فيفوته بذلك بيت في الجنة، ويترك صيام النافلة فيفوته أن يباعد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا، أو صيام ثلاثة أيام من كل شهر، فيفوته صيام الدهر، ويترك قراءة القرآن فيفوته بكل حرف عشر حسنات فضلا عما يفوته في مجالس العلم من أجر وثواب، وغير ذلك من النوافل والمستحبات والتي يفوته بتركها كثير عن الأجر والثواب، بل ربما يحمل الكسل صاحبه حتى يترك الواجبات، وهذا عين الخسران.

وقد قيل في المثل: من اختار الكسل، ما اشتار العسل[1].

وقال بعض الحكماء: نكح العجزُ التواني فخرج منهما الندامة، ونكح الشؤمُ الكسل فخرج منهما الحرمان.

(أدب الدنيا والدين ص: ٣٠٨)

وقيل: دع التكاسل في الخيرات تقبلها فليس يسعدُ بالخيرات كسلان

يقول ابن القيم –رحمه الله– كما في" كتابه مفتاح دار السعادة: ١/٣٧٣": " أعظم الأسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة، ولذة النعيم في الدارين، ويدخل عليه عدوه منها؛ هو الغفلة المضادة للعلم، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة، هذان أصلُ بلاءِ العبد وحرمانه منازل السعداء، وهما من عدم العلم ".

١- اشتار: أي جمعه وجناه.

٦- ومن أضرار الكسل: أنه سبب للحسرة والندامة:

قال ابن القيم-رحمه الله- في" كتابه بدائع الفوائد": " العجز والكسل قرينان وهما من أسباب الألم، لأنهما يستلزمان فوات المحبوب. فالعجز يستلزم عدم القدرة، والكسل يستلزم عدم إرادته، فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل ". اهـ

ويقول ابن الجوزي-رحمه الله- كما في" صيد الخاطر ص:٣١٤": " وأي عيش لمن ساكن الكسل إذا رأى أقرانه قد برزوا في العلم وهو جاهل، واستغنوا وهو فقير، فهل يبقى للالتذاذ بالكسل والراحة معنى؟ ". اهـ

وقال الشوكاني-رحمه الله- كما في" أدب الطلب ص:١٣٥": " من أرسل عنان شبابه في البطالة، وحل رباط نفسه فأجراها في ميادين الملذات لكنها تنقضي عنه اللذة، وتفارقه هذه الحلاوة، وتداهمه المرارات التي منها الندامة على اقترافه من معاصي الله، ثم الحسرة على ما فوته من العمر في غير طائل وتزداد حسرته إذا قاس نفسه بمن اشتغل بالمعالي من أترابه في مقتبل شبابه فإنه لا يزال عند مقارنته ذاته بذاته، وصفاته بصفاته في حسرات متجددات وزفرات متصاعدات، وقد فات ما فات ". اهـ بتصرف واختصار.

ويقول ابن القيم -رحمه الله-: " من نام على فراش الكسل، أصبح ملقى بوادي الأسف ".

وقد قيل: " من دام كسله خاب أمله ". (أدب الدنيا والدين ص:٣٠٨)

وأكثر الناس حسرة يوم القيامة الكسالى المفرطون في جنب الله، قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (الزمر: ٥٦)

وقال تعالى واصفًا حال هؤلاء يوم القيامة: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر: ٢١-٢٤)

من فاته الزرعُ فــي وقت البــدارِ ... فما تراه يحصد إلا الهم والندما

طوبى لمن كانت التقوى بضاعته ... فــي شهرهِ وبحبل الله معتصما

٢٧- يا باغي الشر: إياك والغفلة خصوصًا في رمضان:

ورمضان كما هو معلوم شهر المغفرة والرضوان والعتق من النيران، فلا يحتمل فيه الغفلة ولا التقصير، فإلى أهل الغفلة **أذكرهم بحديث النبي** ﷺ:" رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذكرتُ عنده فلم يُصَلِّ عليَّ، ورَغِمَ أنفُ رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له، ورَغِمَ أنفُ رجل أدرك عنده أبَواهُ الكِبَر فلم يُدْخلاهُ الجنة"

(أخرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ) (صحيح الجامع: ٣٥١٠)

– ***وفي رواية أخرى عند الطبراني من حديث جابر بن سمرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:*** "أتاني جبريل، فقال: يا محمدُ! مَن أدرك أحدَ والديهِ فمات فدخل النار فأبعدَه الله، قل: آمين، فقلتُ: آمين، قال: يا محمد! مَن أدرك شهرَ رمضانَ فماتَ ولم يُغفَر له فأُدخلَ النارَ فأبعده الله، قل: آمين، فقلتُ: آمين، قال: ومَن ذُكرتَ عنده فلم يُصلِّ عليك فماتَ فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلتُ: آمين".

(صحيح الترغيب والترهيب:٩٨٦) (صحيح الجامع: ٧٥)

فرمضان فرصة قد لا تتكرر لك، وموسم قد لا يُعوض، فالبدار البدار قبل فجأة الموت، وعندها يطلب الإنسان العود لإصلاح الزاد ليوم الميعاد، ولكن يُقال له: فات.

– أيها الغافل عن شرف هذا الزمان، **أين أنت من قول الرحمن:** ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد:٢١)

أين أنت من قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣،١٣٤)

فالصالحون تنافسوا في الخيرات، ففازوا بالحسنات، طمعًا في الجنات، وأنت أيها المسكين ما زلت أسيرًا للشهوات، وعبدًا للَّذات، وقلوب المتقين إلى هذا الشهر تحنُّ، ومن ألم فراقه تئنُّ، وأنت ما زلت في غفلة

يا ذا الذي ما كفاه الذنب في رجب حتى عصى ربه في شهر شعبان
لقد أظلك شهر الصوم بعدهما فلا تصيره أيضًا شهر عصيان

آه من لوعة ضيف كريم بين قوم من الساهين الغافلين، آه لو نعرف حق هذا الشهر وقدره؛ لتمنينا أن تكون السنة كلها رمضان، ولكنها الغفلة التي ملئت قلوب الساهين اللاهين الغافلين.

يقول ابن القيم–رحمه الله– في" كتابه الفوائد:١/٩٨": " خراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر".

فالغفلة داء عضال، ومرض خطير، أصيب به البعض في هذه الأزمان، وقد حذر القرآن الكريم من الغفلة أشد التحذير، حتى وصف بها أهل النار الذين خلقوا لها **فقال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

(الأعراف: ١٧٩)

ولكن للأسف وقع الكثير منا في الغفلة، فكلنا يعلم أن العمر قصير والباقي منه هو اليسير ومع ذلك نجد البعض لا يعمره بطاعة الله.

كلنا يعلم أن الآجال مكتوبة ومع ذلك نجد البعض يطيل الأمل ويسيء العمل.

كلنا يعلم أن الأرزاق مقسومة ومع ذلك نجد البعض يطلبه بمعصية الله.

نسمع المواعظ فلا ننتهي، ومات عند الكثير منا الشعور بالذنب أو التقصير.

نعلم أن الجنة تزين فوقنا والنار تسعر تحتنا ومع ذلك نجد البعض بينهما يلهو ويلعب.

نعلم أن أعمارنا هي رأس مالنا ومع ذلك نضيعها في الذنوب والمعاصي.

تمر بنا مواسم الطاعات والتي تتضاعف فيها الحسنات وترفع فيها الدرجات ومع ذلك لا نغتنمها.

وهذه الغفلة والتي حذرنا منها رب العالمين في كتابه الكريم **فقال تعالى:** ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠٥)

وسبب الوقوع في الغفلة الوقوع في المعاصي والذنوب.

يقول ابن القيم-رحمه الله- في" كتابه الفوائد:١/٩٨": " ومن شؤم المعصية: قلّة التوفيق وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربّه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة، وكسف البال. وتتولّد من المعصية الغفلة عن ذكر الله، كما يتولّد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولّد عن الطاعة ". اهـ

والله تعالى يخاطب عباده حتى يفيقوا من غفلتهم فيقول سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦)

يقول ابن مسعود ﷺ كما في صحيح مسلم: " ما كانَ بيْنَ إسْلَامِنَا وبيْنَ أنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بهذِهِ الآيَةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلَّا أرْبَعُ سِنِينَ ".

أيها الغافل... دبر لدينك كما دبّرت لدنياك، لو دخلت في قدميك شوكة لسهرت تتألم شاكيًا طالبًا من يزيل شكواك، وهذه أشواك المعاصي ملأت قلبك منذ سنين، فأين صوت الأنين؟ أين طلب المعين؟

ويحك ألا تتألم لقلبك كما تألمت لبدنك؟!

فرمضان يحمل إليك الدواء فكيف تردّه خائبًا وقد جاءك هاديًا؟! وكيف لا تُحسن استقباله وبين يديه أسباب شفائك وبالمجان؟!

ولقد مات عند الكثير من أهل الغفلة الشعور بالذنب، ومات عندهم الشعور بالتقصير، حتى ظن الكثير منهم أنه على خير عظيم، ونسي المعاصي والمخالفات التي يستهين بها ولا يلقي لها بالًا ويظن أنها لا تضره شيئا وهي التي قد تكون سببًا لهلاكه وخسارته في الدنيا والآخرة وهو لا يشعر.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي في" شعب الإيمان" من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **" إياكم ومحقراتِ الذنوبِ فإنهُنَّ يجتمعنَ على الرجلِ حتى يُهلكنَهُ"، إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ضرب لهنَّ مثلًا كمثلِ قومٍ نزلوا أرضَ فلاةٍ فحضر صنيعُ القومِ فجعل الرجلُ ينطلقُ فيجيءُ بالعودِ والرجلُ يجيءُ بالعودِ حتى جمعوا سوادًا فأَجَّجُوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها".**

(صححه الشيخ أحمد شاكر في تخريج المسند)

أيها الغافل... أين حُرقة الاجتهاد في نهار رمضان؟ أين قلق التهجد في الأسحار؟! فاحذر من الغفلة والتفريط، واندم وابكِ على ما فاتك من الأجر والثواب، قبل أن يأتي يوم لا ينفع المفرط فيه بكاؤه وقد عَظُمَتْ فيه مصيبته وجَلَّ عَزَاؤُه؟ وماذا ينفعه البكاء وقَدْ ضَيَّع الليالي في اللهو واللعب؟ ماذا ينفعه البكاء وقَدْ كَانَ يَتَسَكَّعُ في الأسواق، وكان يجلس مع الأصحاب بعيدًا عن ذكر الله تعالى، والتراويح تُصَلَّى، والناس يتلون كتاب الله تعالى؟ ماذا ينفعه البكاء؟ وقد مضى الأجل، ولا سبيل للعمل، وما بقي إلا الندم، حيث لا ينفع الندم، **وقد قال تعالى لهؤلاء يوم القيامة:** ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فما للظالمينَ مِن نَصِيرٍ﴾ (فاطر: ٣٧).

كم نُصِحَ المسكين فما قَبِلَ النصحَ.. كم دُعِيَ إلى المصالحة فما أَجَابَ إلى الصلح.. كم شاهدَ المتواصلين فيه وهو مُتباعد... كم مرت به زمر السائرين وهو قاعد، حتى إذا ضاق به الوقت، وحاق به المقت.. ندم على التفريط حين لا ينفع الندم، وطلب الاستدراك في وقت العدم، ومتى رَأَيْتَ العَقْلَ يُؤْثِرُ الفَانِي على الباقي فَاعْلَمْ أَنه قَدْ مُسِخَ...

يقول ابن القيم-رحمه الله-: " متى رَأَيْتَ القَلْبَ قَدْ تَرَحَّلَ عنه حُبُّ الله والاستعداد للقائه، وحَلَّ حب المخلوق والرضا بالحياة الدنيا والطمأنينة بها، فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ خُسِفَ به. **قال تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (يونس: ٧). ومتى جَفَّتِ العين من البكاء مِنْ خَشْيَةِ الله تعالى فَاعْلَمْ أَنَّ قَحْطَهَا مِنْ قسوة القلب، وأبعد القلوبِ مِنَ الله القلب القاسي. ومَتَى رَأَيْتَ لَذَّةَ تَهَرُّبٍ مِنَ الأُنْسِ به سبحانه إلى الأُنس بالخلق، ومن الخلوة مع الله إلى الخلوة مع الأغيارِ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ لا تَصْلُحُ له... واعلم أن مَنْ رَكِبَ ظَهْرَ الأماني والتفريط والتواني نَزَلَ بدار الحسرة والندامة ". اهـ

وصدق القائل حيث قال:

جرتِ السنونُ وَقَدْ مَضَى العُمُرُ والقَلْبُ لا شُكْــرٌ ولا ذِكْــرُ
والغَفْلَــةُ الصمــــاءُ شَاهِــرَةٌ سَيْفًا بِــهِ يَتَصَرَّمُ العُمُــرُ
حتى متى يا قلبُ تَغْــرَقُ في لُججِ الهَوى إِنَّ الهَوى بَحْرُ

أيها الغافل... يقول لك الحسن البصري-رحمه الله-:" لا تكن شاة الراعي أعقل منك، تزجرها الصيحة، وتطردها الإشارة ".

وأنت أيها الغافل كم زجرتك آيات الله من النار تخوفك فلا تخاف؟ وإلى الجنة تدعوك فتعرض وكأن المخاطب غيرك.

أيها الغافل... الغنم وهي التي لا عقل لها تَحذرُ من ذئب يفترسها فينهي حياتها، وأنت تعلم أن الشيطان هو ذئب الإنسان أما تخشى أن يفترس الشيطان إيمانك، وينهش قلبك، فتكون طعمة للنار وتتعرض لغضب الجبار.

أيها الغافل... أتبيع الغالي بالرخيص وتزعم أنك عاقل، تترك جنة عرضها السماوات والأرض لأجل الدنيا الفانية وتدّعي الفهم؟

نراك تمر عليك خيرُ أيام الدنيا وأنت في الهوى قد شُدّ عليك الوثاق، والله لن يلتفت إليك أحدٌ حين تعض يديك من الحسرة يوم التلاق، ماذا عنك لو رأيت ركاب الأبرار سبقتك الى جوار الحبيب المختار، وأنت واقف على الساحل محتار، أنت المراد يا غافل.. أخبرني ألك عمر غير هذا العمر؟! أتملك غير هذه الأيام؟

أيها الغافل... المهر اليوم يسير، يكفيك فيه وقفة تتزود خلالها، ثم نهضة تنطلق بعدها.

أيها الغافل... شهر رمضان قصير، ما يحتمل التقصير.

أيها الغافل... يمر عليك العام تلو العام، وما زال قلبك غارقًا في الأوهام والأحلام.

أيها الغافل... يا من أبيض شعره بمرور الأيام، وأسود قلبه من كثره الآثام، أخبرني بالله عليك؛ اذا كنت في شبابك غافلًا وفي مشيبك مُسوِّفًا، فمتى يكون الخلاص والنجاة؟

أيها الغافل... إن لم يحيا قلبك في رمضان فمتى يحيا؟ ومتى تبرأ الروح من دائها إن لم يكن ذلك في شهر الشفاء؟!

فويل لمن نزل أرض المغفرة ولم يخرج منها بسهم. وويل لمن شهد موسم الأرباح ولم يظفر من الجنة بقصر. وويل لمن حضر سوق الرحمات فنام والسوق سينقضي آخر الشهر. ويل له... ثم ويل له.

فَأَقُولُ لِمَنْ فَرَّطَ فِي طَاعَةِ مَوْلَاهُ، وَأَضَاعَ نَفْسَهُ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وَلَمْ يَزْدَدْ فِي رمضان مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا وَلَا مِنَ الرَّحْمَنِ إِلَّا مَقْتًا وَرَدًّا...

أَقُولُ لَهُ: يَا مَنْ ضَيَّعَ عُمُرَهُ فِي غَيْرِ الطَّاعَةِ. يا من فرط في شَهْرِهِ بَلْ فِي دَهْرِهِ وَأَضَاعَهُ. يا مَنْ بضَاعَتُهُ التَّسْوِيفُ وَالتَّفْرِيطُ وَبِئْسَتِ البِضَاعَةُ. يا مَنْ جَعَلَ خَصْمَهُ القُرْآنَ وَشَهْرَ رَمَضَانَ.. كَيْفَ تَرْجُو بِمَنْ جعلته خصمك الشفاعة؟!

وَيلٌ مَنْ شُفَعَاؤُهُ خُصَمَاؤُهُ وَالصُّورُ فِي يَوْمِ القِيَامَةِ يُنْفَخُ

فيا مَنْ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ بِالذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي! هذا أَوَانُ التَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ، فَتُبْ إِلَى مَوْلَاكَ. يَا مِنْ أَضَاعَ نَفْسَهُ وَانْهَمَكَ فِي الْمُحَرَّمَاتِ. هذَا مَوْسِمٌ تُفَتَّحُ فِيهِ الجِنَانُ، وَتُغَلَّقُ فِيهِ أَبْوَابُ النِّيرَانِ.

فالتوبة التوبة... الأوبة الأوبة

فهيا أيها الغافل... البدار البدار باغتنام هذه الأوقات والتعرض لهذه النفحات، ولتتزود فيها قبل انقطاع الزاد، فمن رُحِمَ في رمضان؛ فهو المرحوم، من حُرِمَ خيره فهو المحروم، ومن لم يتزود لمعاده فهو ملوم،

فها قد جاءكم شهر رمضان مزرعة العباد لتطهير القلوب من الفساد
فأد حقـــوقه قـــولًا وعمـــلًا وزادك فـاتخـــذه للميعـــاد
مـــن زرع الحبـــوب وما سقاهـا تـــأوه نادمًا يـــوم الحصـاد

اللهم أيقظنا جميعًا من سبات الغفلات قبل الممات.

أيها الغافل... يا من أدركت رمضان وأنت ضارب عنه صفحًا بالنسيان، هل ضمنت لنفسك الفوز والغفران؟ أتراك اليوم تفيق من هذا الهوان قبل أن يرحل شهر القرآن والعتق من النيران؟ لعله يكون بالنسبة لك آخر رمضان.

أيها الغافل... في رمضان أسباب المغفرة متوفرة، فأبواب الجنة مفتحة، وأبواب النيران مغلقة، والشياطين مصفدة، من قام رمضان لله إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، فيه ليلة خير من ألف شهر من قامها إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ولله فيه عتقاء من النار وذلك في كل ليلة، فهل يتصور بعد ذلك أن يمر عليك رمضان وتخرج منه صفر اليدين ولم يُغفر لك؟ والله إن كان ذلك كذلك فقد رغم أنفك، ولا تلومن إلا نفسك، وقد قال تعالى في الحديث القدسي:" **يا عِبَادِي، إنَّما هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فمَن وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ...**". الحديث (رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري ﷺ)

أيها الغافل... اعلم أن رمضان وصفه رب العالمين في كتاب الكريم فقال: ﴿**أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ**﴾ (البقرة: ١٨٤) فسرعان ما يولي هذا الضيف الكريم والشهر العظيم، فمع كونه موسمًا رابحًا لكنه سريع الرحيل، والمشقة الناشئة عن الاجتهاد في العبادة تذهب لكن يبقى الأجر وانشراح الصدر، لكن إن فرطت وقصرت ذهبت ساعات لهوك وغفلتك وبقيت التبعات والأوزار.

أيها الغافل... قف مع نفسك وقفة صدق وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، فلقد أمرنا الله ﷻ بمحاسبة النفس؛ **فقال تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر:١٨)

فالله تعالى يأمر المؤمنين بالتقوى، ويحثهم على مداومة طاعته، ويدعو كل مؤمنٍ إلى مراقبة نفسه، ومراجعة حسناته وسيئاته، عسى أن يتزوَّد المحسن من الطاعات، ويتدارك المسيء ما مضى وفات، ويعلم المُقصِّر أن أمامه يومًا يُحاسَب فيه، وربَّا هو ملاقيه فيجتهد ويجد ويعمل ويكد.

وقد رُوي في الحديث: " **الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني** ". (أخرجه الترمذي والحاكم بسند فيه مقال)

وكان عمر بن الخطاب ﷺ ***يقول:*** " **حاسِبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنُوا أعمالكم قبل أن تُوزَنُوا، وتهيَّئوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ".

فالمُفرِّط المُقصِّر يقف مع نفسه وقفة صدق، ويقول لها:

يا نفس قد أزف الرحيل ... وأظلك الخطب الجليل
فتأهبي يا نفس لا ... يلعب بك الأمل الطويل
فلتنزلن بمنزلٍ ينسى ... الخليل فيه الخليل
ولـيركبن عليك فيه ... من الثرى ثقل ثقيل

ويحك يا نفس... تنشغلين بعمارة دنياك مع كثرة خطاياك كأنك غير مرتحلة عنها.

أما تنظرين إلى أهل القبور، كيف جمعوا كثيرًا؛ فأصبح جمعهم بورًا، وبنوا مشيدًا؛ فصار بنيانهم قبورًا، وأمَّلوا بعيدًا؛ فصار أملهم زورًا.

ويحك يا نفس... أما لك بهم عبرة، أما لك إليهم نظرة.

أتظنين أنهم دُعوا إلى الآخرة، وأنت من المخلدين.

ويحك يا نفس... هيهات... هيهات ساء ما تتوهمين

ما أنت إلا في هدم عمرك؛ منذ أن سقطت من بطن أمك.

ويحك يا نفس... تُعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك، وتقبلين على الدنيا وهي فارة معرضة عنك.

فكم من مستقبلٍ يومًا لا يستكمله، وكم من مؤمل غدًا لا يبلغه.

ويحك يا نفس... ما أعظم جهلك! أما تعرفين أن بين يديك الجنة أو النار، وأنت سائرة إلى أحدهما.

فما لك تفرحين وتمرحين وباللهو تنشغلين؟! وأنت مطلوبة لهذا الأمر الجسيم، عساك اليوم أو غدًا بالموت تختطفين.

ويحك يا نفس... أراك ترين الموت بعيدًا والله يراه قريبًا، فما لك لا تستعدين للموت، وهو أقرب إليك من كل قريب، أما تتدبَّرين؟

يا نفس... كيف أنتِ مني غدًا وقد رأيتِ ركاب أهل الجنة يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، كيف قد حيل بينك وبينهم؟ هل ينفع الندم؟ هل تغني الحسرات؟ هل ينفع طلب الرجوع بعد الممات؟

يا نفس... انظري واعتبري بمن سكن القبور بعد القصور، واعلمي أن الفرصة واحدة لا تتكرر، فإذا جاءت السكرة فلا رجعة ولا عودة، فأنت في دار المهلة، فاعملي قبل النقلة، قبل أن تقولي: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ(٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ (المؤمنون:٩٩،١٠٠) فيقال لكِ: فات.

يا نفس... هي جنة أو نار. فوز أو خسار. نعيم أو جحيم. سعادة أو عذاب.

لكن يبقى هنا سؤال... هل انتهى بي الأمل؟ هل كُتب عليّ أن أُجازى بسوء العمل.

لا. وربي، بل لا يزال في العمر فسحة، وباب التوبة مفتوح، فدعيني يا نفس أبادر يومي بعدما فرطت في أمسي، دعيني قبل أن تغيب عن هذه الدنيا شمسي، دعيني فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فها هو شهر التوبة والأوبة جاء لتحيا هذه القلوب التي طالما قست، ولتدمع هذه العيون التي طالما تحجرت، ولتخشع هذه الجوارح التي طالما عصت، جاء ليقول لهذه العيون صومي عن النظر إلى الحرام، جاء ليقول لهذه الألسن صومي عن الغيبة والنميمة والكذب والبهتان، جاء ليقول لهذه الجوارح صومي عن العصيان، جاء ليقول لهذه البطون صومي عن أكل الحرام، جاء ليقول لهذه الأيدي صومي عن الرشوة، وسفك الدماء، وظلم العباد، جاء يدعونا جميعًا لجنة عرضها الأرض والسماوات.

فأين اللائذ بالجناب؟ أين المتعرض بالباب. أين الباكي على ما جنى؟ أين المستغفر لأمر قد دنا؟ هلموا جميعا فالله يناديكم ويقول لكم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣)

فالغفلة أحبتي في الله مرض خطير ينبغي للإنسان أن يسارع في طلب العلاج.

وعلاج الغفلة يتلخص في:

أولًا: ذكر الله تعالى، وقراءة القرآن الكريم:

وقد حذر الله تعالى من الغفلة عن ذكره؛ فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠٥).

ثانيًا: حضور مجالس الذكر:

فإنها تذكر بالله، وتلين القلوب، وتذكر بعقابه وجنته وعفوه؛ ككلمة بعد الصلاة في المسجد، أو خطبة جمعة، أو كلمة في إذاعة.

ثالثًا: معرفة حقيقة الدنيا وأنها لا قيمة لها عند الله:

فحقيقتها أخبر عنها الرسول ﷺ فيما أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" لو كانتِ الدُّنيا تعدلُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقى كافرًا منها شربةَ ماءٍ ".**

(صحيح الترمذي: ٢٣٢٠)

رابعًا: الإكثار من ذكر القبر والموت:

فكفى بالموت واعظًا، **فعن محمد بن المتوكل قال:" بلغني أن خاتم عمر نقشه: كفى بالموت واعظًا يا عمر"**، وكفى به منبهًا ومذكرًا، فكيف لمن يتذكر الموت، ويحضر الجنائز، ويزور المقابر؛ أن يكون غافلًا عن طاعة ربه وعبادته ولقائه؟!.

خامسًا: قصر الأمل:

أخرج البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما- قال: **" أخَذَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ بمَنْكِبِي، فَقَالَ:" كُنْ في الدُّنْيَا كَأنَّكَ غَرِيبٌ أوْ عَابِرُ سَبِيلٍ". وكانَ ابنُ عُمَرَ يقولُ: إذَا أمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وإذَا أصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وخُذْ مِن صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، ومِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ".**

سادسًا: البعد عن أهل الغفلة وعدم طاعتهم:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨)

قال السعدي-رحمه الله- في تفسيره: " وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: صار تبعا لهواه، حيث ما اشتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، **كما قال تعالى:** ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ...﴾ (الجاثية:٢٣) ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فُرُطًا﴾ أي: ضائعة معطلة. فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به، ودلت الآية، على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماما للناس، من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه، فحقيق بذلك، أن يتبع ويجعل إماما". اهـ

تَفَكَّـر قَبـلَ أَن تَنـدَم ... فَإِنَّـكَ مَـيِّتٌ فَاعـلَم

وَلا تَـغتَرَّ بِالدُنيـــا ... فَـإِنَّ صَحيحَها يَسقَم

وَإِنَّ جَديـــدَها يَبلى ... وَإِنَّ شَبـــابَهـا يَهـرَم

وَما لِلمَـرءِ إِلّا مـــا ... نَوى في الخَيرِ أَو قَدَّم

وأخيراً وقبل الفِراق أقول لكم: أحبتي في اللّه... صوموا اليوم عن شهوات الهوى؛ لتدركوا عيد الفطر يوم اللقاء، لا يطولن عليكم الأمل باستبطاء الأجل، فإن معظم نهار الصيام قد ذهب، ووعيد اللقاء قد اقترب، حقِّقوا الصيام في نفوسكم؛ بالإمساك عما يغضب الله، واحذروا المعاصي المؤدية إلى عذاب النار، وبادروا إلى ما ينجيكم، وانتهوا عمَّا يوبقكم ويرديكم.

فالصالحون تنافسوا في الخيرات، طمعًا في الجنات، وأنت أيها المسكين ما زلت أسيرًا للشهوات، وعبدًا للَّذات، وقلوب المتقين إلى هذا الشهر تحنُّ، ومن ألم فراقه تئنُّ، وأنت ما زلت في غفلة.

آه من لوعة ضيف كريم بين قوم ساهين غافلين، أوّاه لو نعرف حق هذا الشهر وقدره؛ لتمنينا أن تكون السنة كلها رمضان، ولكنها الغفلة التي ملئت قلوب الساهين اللاهين الغافلين.

فما لك لا ينفع فيك واعظ كأنك من جماد؟ ستندم إن رحلت بغير زاد، وتشقى إذ يناديك المناد، فلا تفرح بمال تقتنيه، فإنك في معكوس المراد، وتب بما جنيت وأنت حي، وكن متنبهًا من ذا الرقاد، أيسرك أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد؟

فَبَادِرْ إلى الخَيْرَاتِ قَبْـلَ فَوَاتِـهَا ... وَخَالِفْ مُرَادَ النَّفْسِ قَبْلَ مَمَاتِهَا
سَتَبْكِيْ نُفُوسٌ في القِيَامَةِ حَسْرَةً ... عَلى فَـوْتِ أَوْقَاتٍ زَمَـانَ حَيَاتِهَا
فَلاَ تَغْتَرِرْ بِالعِزِّ وَالمَالِ والمُنَى ... فَكَم قَـدْ بُلِيْنَا بانْقِـلاَبِ صِفَاتِـهَا

يا غافلا عن شهر رمضان!... اعرف زمانك، **يا كثير الحديث فيما يؤذي!** احفظ لسانك، **يا متلوثًا بأوحال الفضائيات والمسلسلات!** اغسل بالتوبة ما شانك، **يا مضيع الزمان فيما ينقص الإيمان! يا معرضًا عن الأرباح ومتعرضًا للخسران! أين أنت من قول الرحمن:** ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد:٢١)

أين أنت من قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣،١٣٤)

فيا مَن أسرف على نفسه وأتبعها الهوى، وجانب الجادة في أيامه وغوى، هاك رمضان قد أقبل فجرد فيه إيمانك، وامح به عصيانك، فهو والله نعمة كبيرة، ومنة كريمة، وفرصة وغنيمة، فهيا إلى التوبة، هيا إلى الأوبة، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (الحديد:١٦) هيا أعلنها، وقل: بلى. يا رب قد آن، بلى. يا رب قد آن.

أيها العاصي... ها هي التوبة في رمضان معروضة، ومواسم الطاعات مشهورة، فلئن أتعبتك المعاصي، وأثقلتك الذنوب، فاعلم أن لك ربًا يريد منك أن تتوب: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء:٢٧)

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١١٠)

وختامًا... أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلا أن يجعلنا ممَّن يقتدون بسنة النبي ﷺ، في جميع الأقوال والأفعال، في السر والعلانية، وأن يتقبل منَّا الدعاء، والصيام، والصلاة، وصالح الأعمال، وأن يتولانا بعفوه، وأن يرحمنا برحمته، وأن يستعملنا في طاعته، وأن يتقبلنا في عباده الصالحين، وأن يبلغنا رمضان أعوامًا عديدة، وأزمنة مديدة ونحن في عافية وستر، وأن يجعلنا في رمضان من عتقائه من النار، وأن يجعل مثوانا الجنة، وأن يرزقنا لذة النظر إلى وجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

فاللهم بلغنا رمضان أعوامًا عديدة، وأزمنة مديدة، واجعلنا فيه من عتقائك من النار. وأسأل الله تعالى أن يتولانا بعفوه، وأن يرحمنا برحمته، وأن يستعملنا في طاعته، وأن يجعل مثوانا جنته، وأن يتقبلنا في عباده الصالحين... آمين.

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة.

وأسأل الله– تعالى– أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منّي بقبول حسن، كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا شأن أي عمل بشري فإنه يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثَمَّ خطأ فاستغفر لي:

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله – تعالى– أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك